

ياسمينة خضرا

سنونوات كابول

رواية

الفارابي

سنونوات كابول

Yasmina Khadra

Les hirondelles de Kaboul

Roman

ياسمينة خضرا

سنونوات كابول

رواية

ترجمة: محمد ساري

الفارابي

الكتاب: سنونوات كابول
المؤلف: ياسمينة خضرا
الترجمة: محمد ساري
تصميم الغلاف: ڤينوس نادر

الناشران
* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com
* سيديا (SEDIA) فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر
ت: 21 00 48 21 (213) ـ 82 14 60 21 (213)
فاكس: 84 14 60 21 (213)
www.sedia-dz.com

الطبعة الأولى 2007
ISBN: 978-9953-71-250-5 ـ لبنان
ISBN: 978-9961-704-87-5 ـ الجزائر
Dépôt légal: 1170-2007

في أقاصي الدنيا، تبسط زوبعة فستانَها بأذياله المزركشة في رقصة عجيبة مرعبة لساحرة هائجة؛ لم تتمكن هستيرياها حتى من نفض الغبار عن النخلتين المكلّستين المنتصبتين في السماء كما ذراعي معذّب. في حين أن الرمضاء امتصّت نفحات الهواء المفترضة التي يكون الليل، في فوضى انسحابه، قد نسي أخذها معه. ومنذ نهاية الصبيحة، لم يجمع طائر كاسر واحد الحوافز الكافية ليحلق فوق فرائسه. اختفى الرعاة الذين تعوّدوا على دفع قطعانهم الهزيلة إلى غاية سفح التلال. لكن على بعد أميال، وباستثناء الحراس القليلين القابعين بداخل مَراقبهم الهشّة، لا أثر لحياة تذكر. لكن على مدى البصر، يرافق الصمت القاتل هذه القفار التي يبدو أن الآلهة قد تخلّت عنها.

إن الأراضي الأفغانية ليست سوى ساحات للقتال، مُضطَرعات ومقابر. تتفتّت الصلوات في غضبة شظايا الرصاص. كل مساء، تعوي الذئاب إلى حدّ الموت. والريح، حينما تنتفض، تسلّم شكاوى المتسوّلين إلى نعيق الغربان.

هنا يبدو كل شيء ملتهباً، متحجّراً، صعقته تعويذة مقززة. يكشط الانجراف التربة المنخورة، يزيل رواسبها، ينزع حشوتها، يبلّطها، رافعاً نصبها التذكارية بقوته الهادئة، بلا أدنى عقاب. ثمّ، ودون سابق إخطار، عند سفح الجبال التي نتفتها بغيظ نفحات السعير، تنبثق كابول... أو ما تبقى منها: مدينة في حالة تحلّل متقدّم.

لا شيء سيكون مثل سابق عهده، هذا ما توحي به الطرق المصدّعة، التلال الجرداء، الآفاق الملتهبة وقعقعة الأسلحة. لقد مسّ خراب القلاع الأرواح. دمّر الغبار البساتين، أعمى الأبصار واسْتَغلق الأذهان. في أماكن متفاوتة، يضيف طنين الذباب ونتانة البهائم الميتة للخراب المستفحل بصمة لا تمحى. يبدو أن العالم يتعفن شيئاً فشيئاً، وأن الغنغرينة اختارت هذا المكان لنموها، في منطقة الباشْطون، في حين يواصل التصحّر زحفه الشرس عبر ضمائر الرجال وذهنياتهم.

لا أحد أصبح يؤمن بمعجزة الأمطار، وعجائب الربيع، وبدرجة أقل، بأفجار أيام رحيمة. أصيب الرجال بالجنون؛ أداروا ظهورهم للنهار ليقابلوا الليل. تمّ خلع القديسين المبجلين. مات الأنبياء وصُلبت أشباحهم على جبهات الأطفال ...

ورغم ذلك، وُلدت قصتنا هنا أيضاً، في سكوت الحجر وصمت القبور، بين قحْط الأرض وجذب القلوب، كما يتفجّر نبات النيلوفر في مياه مستنقع آسنة.

1

يُسقِط عتيق شَوْكَتْ كُرباجه حوله كي يشقّ لنفسه طريقاً وسط الدهماء بثيابها الرثّة، التي تتزَوْبع بين رفوف السوق، كما سرب أوراق ميتة. إنه متأخر، ولكنه يستحيل أن يتقدّم بسرعة أكبر. بدا كما لو أنه في خلية نحل؛ إن الضربات التي يبديها بكل قواه لا تحرّك أحداً. إنه يوم السوق والناس يوجدون في حالة ابتهاج وهياج. أحسّ عتيق بدوار في رأسه. يتدفق المتسوّلون من جميع أرْباض المدينة، بأمواج تكبر شيئاً فشيئاً، يزاحمون أصحاب العربات اليدوية والمتسكعين حول الفضاءات الشاغرة المفترضة. أما روائح الحمالين، وكذا تلك المنبعثة من المواد المتعفنة، فإنها تملأً الجوّ بنتانة مرعبة، فيما تسحق البطحاءَ حرارةٌ خانقة. تتشبث بعض النساء بالمتسوّقين، بمظهرهن الشبحي، محجورات خلف الشادور المتسخ، بأيديهن الممدودة

المتوسلة، لتجمع الواحدة منهن قطعة نقدية، والأخرى لعنة. وحينما يتعنَّتن، وهو غالباً ما يحدث، ترجعهن إلى الوراء ضربة سوط حانقة. تراجع طفيف ويُستأنَف الهجوم، عبر توسلاتهن التي لا تطاق. فيما تتجمّع الأخريات بإلحاح يائس حول تجار الخضر والفواكه، مثقلات بذرية يقيم الذباب وليمة حول مناخرها، تترقب، بين دعاءين، حبة طماطم أو بصلة عفنة يكون زبون يقظ قد اكتشفها في عمق سلّته.

صرخ بائع باتجاههن، وهو يلوّح حانقاً عصاه الطويلة فوق الرؤوس:

- ابتعدن من هنا... إنكن تجلبن النحس لسلعتي ومعها مختلف أنواع الحشرات.

تفحّص عتيق شَوْكت ساعته. تقلّصت قسمات وجهه من الضجر. يكون الجلاد قد وصل منذ ما يزيد عن عشر دقائق، فيما لا يزال هو، يجرجر قدميه في الأزقة. اشتط غضباً، فعاود استئناف الضرب كي يفرّق الأمواج البشرية. ولكنه هاج بلا فائدة على مجموعة من الشيوخ الذين لم يحسوا بضربات مقرعته ولا بشهيق طفلة تائهة وسط الازدحام الشديد. بعد ذلك، استغل فرجة أحدثها مرور شاحنة، فتمكن من التسلل إلى غاية زقاق جانبي، أقل حركة، وأسرع الخطى في مشية

عرجاء باتجاه بناية واقفة، بأعجوبة، وسط الخراب الذي يلفّها من جميع الجهات. هنا يتعلق الأمر بمستوصف قديم مهجور، تعرّض للنهب والتخريب منذ زمن طويل من قِبَل الأرواح الضارية، حيث يستعمله الطالبان أحياناً كسجن مناسباتي عندما يتم التحضير لإعدام عمومي في الحي.

قال ملتح مُتكرّش راعداً وهو يلامس كلاشنيكوفه:

- أين كنت؟ لقد أرسلت شخصاً يبحث عنك منذ ساعة تقريباً.

قال عتيق دون أن يتوقف:

- أطلب منك العفو، قاسم عبد الجبار. لم أكن بالبيت.

ثم أضاف بصوت حانق:

- كنت في المستشفى. اضطررت إلى نقل زوجتي على عجل.

دمدم قاسم عبد الجبار، غير مقتنع، ثمّ وضع إصبعاً على مربع ساعته ليفهمه أن الجميع متذمرون بسببه. أدخل عتيق رقبته بين كتفيه واتجه نحو البناية حيث ينتظره رجال مسلحون، يجلسون القرفصاء على طرفي السياج، فوقف أحدهم وهو ينفض الغبار عن مؤخرته، واتجه صوب شاحنة منزوعة الغطاء، متوقفة

على بعد حوالي عشرين متراً، قفز بداخل الكابينة، أشعل المحرك، رجع القهقري، واصطف أمام مدخل السجن.

أخرج عتيق شوكت علّاقة مفاتيح من تحت صِداره الطويل واندفع إلى داخل الزنزانة، متبوعاً عن قرب بميليشيتين ملفوفتين بالشادور. في زاوية من غرفة الحجز، في المكان الذي تدفق كوةٌ بركةَ ضوء، أنهت امرأة محجبة صلاتها. طلبت الميليشيتان من الحارس أن ينسحب. وبعد ذلك، انتظرتا أن تنهض المسجونة كي تلتحقا بهما. ثمّ، وبلا أدنى لطف، أمرتها إحداهن بالاستقامة في وقفتها، قبل أن تباشرا في قيد ذراعيها وفخذيها بصرامة. وبعد التأكد من أن الحبل ممدود إلى آخره، مررتا كيساً كبيراً من الكتان فوق جسدها ودفعتاها أمامهما بداخل الرواق. كان عتيق ينتظر عند العتبة، وبمجرد خروجهن، أشار إلى قاسم عبد الجبار بحركة من اليد. طلب هذا الأخير من رجاله في الساحة أن يبتعدوا. تجمّع بعض الفضوليين مقابل البناية، حائرين، صامتين. خرجت الميليشيتان إلى الزقاق، أمسكتا بالسجينة من الإبطين، ودفعتاها على المقعد الخلفي للشاحنة قبل أن تجلسا إلى جانبها في ضيق شديد.

رفع عبد الجبار حاجز المركبة الحديدي وأسقط الأقفال. بعد ذلك ألقى نظرة أخيرة على الميليشيتين والسجينة ليتأكد أن كل شيء على ما يرام، ثمّ ركب بقرب السائق وأعطى ضربة بأخمص بندقيته على أرضية السيارة إعلاناً بالانطلاق. مباشرة، تدحرجت الشاحنة، محروسة من قبل سيارة كبيرة، رباعية الدفع، يعلوها فانوس دوّار، ومثقلة برجال الميليشيات بأزياء مبتذلة.

تردّد مُحسن رَماتْ طويلاً قبل أن يقرّر الالتحاق بالتجمع المنعقد بالساحة العمومية حيث أعلنوا عن تنفيذ حكم الإعدام بحق امرأة فاجرة. سيتمّ قتلها رجماً. قبل ساعات قليلة، جاء عمال لإفراغ عربات مليئة بالحجارة في مكان تنفيذ حكم الإعدام، كما حفروا ساقية صغيرة بعمق خمسين سنتيمتراً.

سبق لمُحسن أن حضر عدّة إعدامات من هذا النوع. بالأمس فقط، تمّ شنق رجلين، أحدهما في سنّ المراهقة، في أعلى شاحنة-رافعة ولم تُنزل جثتاهما إلا عند سقوط الليل. يكره محسن الإعدامات العمومية. إنها جعلته يدرك هشاشته، كما أثقلت آفاق محدوديته؛ بغتة، اكتشف تفاهة الأشياء والكائنات ولا شيء يصالحه مع قناعاته السابقة حينما كان لا يرفع عينيه

باتجاه الأفق إلا ليطالب بحضوره. أصيب بالقرف في أوّل حضوره لتنفيذ إعدام عمومي -تمثّل المشهد في ذبح القاتل من قبل قريب للضحية. خلال ليالٍ عديدة، كانت رؤى كابوسية تعكّر صفو نومه. عادة ما كان يستيقظ صارخاً أكثر من ممسوس. بعد ذلك، وكلما زادت الأيام في تمتين مشانقها ونمّت قطيعها التكفيري إلى حدّ أضحى الناس في كابول يشعرون بالقلق لفكرة تأجيل تنفيذ إعدام، توقف محسن عن الحلم. انطفأ ضميره. إنه يغرق في نوم عميق بمجرد إغماض العينين ولا يحيَ إلا مع الصبح، رأسه فارغ كما الجرّة. أضحى الموت عنده وعند الغير أمراً عادياً. ومن جهة أخرى، أصبحت الحياة كلها لا قيمة لها. لا يوجد شيء ذو بال سِوَى الإعدامات التي تطمئن الأحياء كلما كنس الملالي أمام أبوابهم. لقد تحوّلت كابول إلى غرفة انتظار الرحلة نحو الآخرة. غرفة انتظار مظلمة حيث زوّرت فيها جميع المعالم؛ شقاء محتشم؛ كمون عصي الاحتمال يعاش في سرية تامة.

لا يعرف محسن أين يذهب ولا ماذا يفعل بفراغ أيامه. منذ الصباح، لا يتوقف عن التسكع عبر الأحياء المخرّبة، شارد الذهن، سحنته جامدة. سابقاً، يعني سنوات ضوئية عديدة، كان يحب التجوّل مساءً، عبر

شوارع كابول. في ذلك العهد، لم تكن واجهات المحلات تعرض شيئاً ثميناً، ولكن لا أحد يأتي ليسوط وجهك بالكرباج. كان الناس يذهبون إلى انشغالاتهم اليومية بكثير من الحوافز، تجعلهم يخطّطون، في هذيانهم، لمشاريع عجيبة. كانت المحلات غاصة إلى حدّ التشقق؛ تتدفق ضوضاؤها على الأرصفة كما سيل انشراح. كان الشيوخ المكوّمون على كراسي خَيْزَرانية يرضعون نراجيلهم، يغضّنون عيونهم من فرط قوة أشعة الشمس، والمراوح موضوعة بإهمال على بطونهم. أما النساء، وبرغم النقاب المشبّك، فكنّ يستدرن داخل عطرهن كما نفحات الحرارة. لقد كان قادة القوافل القديمة يقرّون بأنهم لم يشاهدوا في أي مكان آخر من العالم، خلال ارتحالهم الدائم، حوريات أكثر إبهاراً. عذارى غامضة، ضحكاتهن نشيد، تغنّجهن استيهام. لهذا السبب، أضحى ارتداء الشادور ضرورة؛ يعمل على حفظهن من الحسد، كما يجنّب الرجال من الوقوع في تعاويذ مفرطة... ما أبعده، ذاك الزمن... أهو حقيقة أم خرافة؟ الآن، لم تعد شوارع كابول تسلّي. تشهد الواجهات الجرداء التي لا تزال واقفة بأعجوبة أن المنازل والبنايات والمطاعم والمحلات المتعددة احترقت كلها. تحوّلت القارعة المزفّتة سابقاً إلى دروب

محفورة تكشطها الصنادل والحوافر طوال النهار. أخفى أصحاب المحلات ابتساماتهم في الخزائن. تبخّر مدخّنو تشي لام وتخندق الرجال خلف الظلال الصينية، أما النساء، المحنّطات بأكفان بلون الرعب والحمى، فغرقن في غفلة مطلقة.

قبل الغزو السوفييتي، كان محسن في عامه العاشر؛ عُمْر لا نفهم فيه لماذا هجر الناس الحدائق العمومية ولماذا أصبح النهار أخطر كما الليل؛ عمر نجهل فيه أن شقاءً يمكن أن يحدث فجأة. كان أبوه تاجراً ناجحاً في البيع بالجملة. أما العائلة فكانت تقطن في منزل كبير وسط المدينة وتستقبل بانتظام الأهل والأصدقاء. لا يتذكر محسن الشيء الكثير عن تلك الفترة، ولكنه متأكد أن سعادته كانت كاملة، ولا أحد يحتج على ضحكاته المرتفعة أو يستهجن نزوات الطفل المدلل الذي كان يمثله. بعد ذلك، حدث التدفق الروسي، بجيشه العرمرم وعملقته الغازية التي توحي بنهاية العالم. فجأة، تلبّدت السماء الأفغانية بالكواسر المدرعة، هي التي كانت فيما سبق مكاناً تنسج فيه أجمل قصص الحب والغرام: تشقّق صفاؤها الأزرق بنثار البارود وتشتّتت السنونوات المفزوعة وسط شلال الصواريخ المتدفقة بلا انقطاع. إن الحرب هنا. ها هي تعثر على وطن...

قذفه بوق سيارة جانباً. وبحركة غريزية، وضع طرف عمامته المتدلي على وجهه ليقي نفسه من الغبار. لقد لمسته شاحنة عبد الجبار وكادت تسقط بغّالاً مع عربته، وهي تتدحرج بسرعة باتجاه الساحة العمومية، تتبعها عن قرب سيارة الـ4×4 المزمجرة. عند رؤية الموكب، هزّت جلبة فظة التجمهر الصاخب حيث يتشاجر رجال مشعَّثون مع أطفال مشاكسين حول الأماكن الأمامية، ممّا أجبر حراس الميليشيا على توزيع الضربات القوية كي يفرضوا نوعاً من الهدوء. توقفت الشاحنة قرب الساقية التي تمّ حفرها حديثاً. أنزلوا المُذنبة فيما كانت الشتائم واللعنات تنبعث من هنا وهناك. من جديد، عاد الازدحام إلى زعزعة الصفوف، قاذفاً إلى الوراء الأقل يقظة.

استغل مُحسن الثغرات التي قدّها الاهتياج بداخل الحشد المزدحم كي يلتحق بالصفوف الأولى، غير مكترث بالاندفاعات العنيفة التي تحاول قذفه بعيداً. وحينما انتصب على أطراف قدميه، رأى كائناً عملاقاً "يغرس" المرأة الفاجرة في الحفرة، يغطيها بالتراب إلى غاية الفخذين بحيث تبقى مستقيمة وتُمنَع من التحرّك.

رمى مُلّا أطراف عباءته على كتفيه، تفرّس آخر مرّة ركام الأحجبة التي تخفي كائناً يستعد للهلاك وقال صارخاً:

- من العباد من فضّل التمرّغ في الوحل كما الخنازير. مع أنهم على دراية بالرسالة الربانية، وعرفوا مساوئ المغريات ولكنهم لا يملكون الإيمان الذي يجعلهم يقاومون الرذيلة. لقد فضّل هؤلاء الأشقياء، الذين أعمى الله أبصارهم، لحظة لذّة زائلة وتافهة، على جنّة الخلد. لقد أخرجوا أصابعهم من الماء الزلال المطهّر لإغراقها في الماء القذر، أغلقوا أذانهم لنداء الرحمان وأنصتوا إلى وساوس الشيطان، عوض الامتناع عن ارتكاب المحرمات والفوز برضا الله. ماذا نقول لهم سوى حزننا وسخطنا على أفعالهم؟... (امتدّ ذراعه نحو المرأة المحنطة كما السيف البتار). لا تجهل هذه المرأة طبيعة أفعالها. لقد أبعدتها نشوة الفجور عن طريق الله. اليوم، الله هو الذي يدير لها ظهره. لا حق لها، لا في رحمته، ولا في شفقة المؤمنين. عاشت في الخزي، وستموت في الخزي.

سكت لحظة، تنحنح، ثمّ بسط ورقة في صمت مخيف. ارتفع صوت من عمق الحشد:

- الله أكبر...

رفع المُلا يداً مهيبة لإسكات الصائح. بعد تلاوة آية قرآنية، قرأ شيئاً أشبه بحكم، ثم أرجع الورقة إلى جيب صداره الداخلي، وبعد لحظة تأمل، دعا الغوغاء إلى التسلح بالحجارة. إنها إشارة بداية الرجم. في اندفاع عصي الوصف، ارتمى الناس على أكوام

الحجارة المتناثرة على طول الساحة، والتي أُفرغت قبل ساعات قليلة خصيصاً لعملية الرجم. مباشرة، سقط شلال من القذائف على المعذّبة، المكمّمة الفم، التي تتخبّط تحت غضبة الضربات، دون أن تتمكن من إطلاق الصراخ. جمع محسن ثلاثة أحجار ورماها باتجاه الهدف. ضاع الحجران الأوليان بسبب السعار المحيط به، ولكنه أصاب الضحية في الرأس عند الضربة الثالثة، ورأى انفجار لطخة حمراء في المكان الذي مسها فيه، وهو يشعر بابتهاج غامض. دقيقة بعد ذلك، انهارت المعذّبة، دامية الوجه ومكسّرة، وتوقفت عن الحركة. أجّج جمودها الراجمين الذين ازدادوا شراسة، بعيونهم الجاحظة وأفواههم المزبدة، كما لو أنهم يحاولون إحياءها ليستمر عذابها. في خضم الهستيريا الجماعية، اقتنع الراجمون بأنهم يطهرون أنفسهم من رجس الشيطان عبر ذنوب الفاجرة، فلم يدرك أحدهم أن الجسد المقصوف من جميع الجهات لم يعد يستجيب للضربات، وأن المرأة المضحى بها تقبع بلا حياة، نصف مدفونة، كما كيس القذارة الذي يرمى للكواسر.

2

شعر عتيق شَوْكت بانزعاج داخلي. خضّته رغبة الخروج إلى الهواء الطلق والتمدّد قرب جدار مقابل الشمس. لا يمكنه أن يبقى دقيقة واحدة في غار الجرذان هذا، يهذي أو يحاول فكّ الخطوط المتعرّجة التي تتعانق في شبكة عنكبوتية على جدران الزنزانات. لقد أجّجت برودة السجن الصغير جراحه القديمة؛ أحياناً، تتشنّج ركبته من البرد ويجد صعوبة في طيّها. بالموازاة مع ذلك، أحسّ بأن الأماكن المغلقة أضحت ترعبه؛ لم يعد يتحمّل الظلام، ولا ضيق المكتب الصغير الذي يشتغل فيه، المكدّس بنسيج العنكبوت وبجثث حمير القبّان. رتّب قنديله الزيتي إلى جانب قربة جلد المعز وصندوقه المغطى بالقطيفة الذي يحوي نسخة كبيرة من القرآن، ثم لفّ حصير الصلاة، علقه في مسمار وقرّر مغادرة السجن. على كل حال، إن

رجال الميليشيا يعرفون أين يعثرون عليه فيما لو احتاجوا إليه. لقد أضحى عالم السجن يثقل كاهله. فإنه يجدها منذ أسابيع قليلة، وكلما فكّر في مهنة السجّان التي يمارسها، فإنه يجدها بلا أفضال ولا نبل. تغرقه هذه المعاينة في سخط دائم. فهو كلما أغلق الباب الحديدي خلفه، وانعزل هكذا عن المدينة وضوضاء أزقتها، أحسّ أنه يدفن نفسه حيّاً. خوف وهمي يقلق أفكاره. حينئذ، ينكمش في زاوية ويرفض تمالك نفسه. إن عدم المقاومة يمنح له نوعاً من السكينة النفسية. هل التحقت به العشرون سنة من الحرب التي خاضها باندفاع عجيب؟ في الثانية والأربعين من العمر، يشعر بنفسه منهوكاً، ولا يرى نهاية النفق ولا حتى طرف أنفه. وشيئاً فشيئاً، استسلم لوضعه، وبدأ يشك في وعود الملالي، ويتفاجأ أحياناً بأنه لا يخشى العقاب الرباني إلا لماماً.

هَزُل كثيراً. سقط وجهه إرباً إرباً تحت لحية الأصولية الكثة؛ كذلك فقدت عيناه حدّتهما برغم الكحل الذي يملأهما. لقد قضت ظلمة الجدران على وضوحهما، واستقرّت ظلمة مِهنته بعمق داخل روحه. لا ينتظر شخص الشيء الكثير من وقته الشاغر حينما يقضي لياليه يحرس المحكوم عليهم بالإعدام ليسلّمهم للجلادين في النهار. الآن، اختلطت عليه الأمور، ولا

يستطيع عتيق القول إن كان السبب يعود إلى صمت الزنزانتَين الفارغتَين أو أن شبح الفاجرة التي رُجمت هذا الصباح هو الذي يكسي زوايا الغرفة بروائح عفونة ما وراء القبر.

خرج إلى الشارع. كانت شرذمة من الأطفال تطارد كلباً ضالاً في جوقة متنافرة الأصوات. لقد أزعجه الصراخ والهرج والمرج، فالتقط حجارة ورماها على أقرب طفل حيث تفادى هذا الأخير الرمية، فواصل الصراخ نكاية في الكلب الذي بدا على وشك الانهيار، غير مكترث بشيء. أدرك عتيق أنه يضيّع وقته. سوف لن يفترق الأشقياء قبل رجم رباعي الأقدام، متدربين هكذا، بشكل مبكر، على رجم الكبار.

ابتعد عتيق عن السوق الملوّثة بالمتسوّلين والحمّالين، يتحسّس حزمة مفاتيح السجن تحت صداره. وكالعادة، برغم القيظ اللاهب، تعجّ السوق بالغوغاء الهائجة، تتحرك وسط الرفوف الهشة، تقلب وتعيد تقليب الملابس، مبعثرة الأسمال المعروضة، باحثة عن شيء غير واضح المعالم، مهلكة بأصابعها الشديدة النحول الفواكه المفرطة النضج.

نادَى عتيق على شاب من أبناء جيرانه وأعطاه البطّيخ الذي اشتراه توّاً، وقال مهدداً إياه بإشهار كرباجه:

- خذه إلى بيتي. أسرع ولا تجرجر قدميك في الأزقة.

وافق الطفل بحركة من الرأس، ثمّ شدّ الفاكهة على مضض تحت إبطه واتجه نحو مجموعة أكواخ غريبة الأطوار.

لقد قرّر عتيق التوجّه أوّلاً عند عمّه الذي يشتغل إسكافياً ويملك محلاً يقع مباشرة خلف ركام قريب من الخراب؛ ولكنه عدل عن الفكرة بغتة لأن عمّه من أكبر الثرثارين الذين أنجبتهم القبيلة؛ وسيجبره على البقاء إلى غاية الليل وهو لا ينفك يعيد سرد الحكايات نفسها حول الأحذية الراقية التي كان يصنعها لضباط الملك وأعيان النظام القديم. في السبعين من العمر، نصف أعمى ونصف أصم، كان العجوز أشرف يهذي هذياناً خالصاً. وحينما يضجر زبائنه من سماعه وينسحبون خلسة، فلا يتفطن إليهم ويواصل مخاطبة الجدار إلى حدّ اللهث. الآن، وبما أن لا أحد أضحى يأتي إليه ليطلب صناعة حذاء على مقاسه وأن النعال القليلة التي تسقط بين يديه بالية إلى حدّ لا يعرف من أين يبدأ ترقيعها، فقضّ الضجر أيامه، ولم يبق له إلا هذيانه المفرط ليضجر به غيره.

توقف عتيق في منتصف الطريق منشغلاً بالتفكير فيما سيفعل بأمسيته. إنه في أعماقه، لا يرغب في العودة إلى بيته ليجد سريره غير المرتب وأواني المطبخ

منسية في ماء الحوض الآسن وزوجته راقدة منكمشة في زاوية من الغرفة، رأسها معصوب بمنديل متسخ ووجهها شاحب وشفتاها متورمتان. وصل بسببها متأخراً هذا الصباح، وكاد يؤخر تنفيذ الإعدام في المرأة الفاجرة. وفي المستوصف، كفّت الممرضات عن الاعتناء بها، منذ اليوم الذي رفع فيه الطبيب ذراعيه، تعبيراً عن عجزه. ربما بسببها أيضاً، توقف فجأة عن الإيمان بوعود الملالي والخوف من العقاب الرباني. فهي في أغلب الليالي، تبقيه ساهراً، تتأوّه من الوجع كالمجنونة، ولا تغفو إلا عند اقتراب الفجر، بعد أن ينهكها الألم والتشنجات. ويقضي فراغ أيامه متنقلاً بين كهوف الدراويش بروائحها العفنة، بحثاً عن عقاقير من شأنها تخفيف آلام زوجته حيث لم تتمكن فضائل التمائم ولا الصلوات الخاشعة من إسعاف المريضة. أخته بدورها، فبعد أن قبلت السكن معهما كي تقدّم لها بعض الإسعافات، خرجت يوماً باتجاه إقليم بالوتشيستان ولم تعد. بقي عتيق وحيداً، أعزل، لا يعرف كيف يسيّر وضعية تتأزّم يوماً بعد يوم. فإذا كان الطبيب قد كفّ عن علاجها، ماذا بقي خارج حدوث معجزة؟ ولكن هل تحدث المعجزات اليوم في كابول؟ أحياناً، تكاد أعصابه تتفتّق، فيضمّ يديه ويرفعهما إلى السماء في دعاء خاشع، متوسلاً الله أن يتذكر زوجته ويرجعها إليه. في نهاية المطاف، ما الفائدة من بقاء

مريض على قيد الحياة حينما يؤلمه التنفس البسيط ويرعب أقرباءه؟

ارتفع صراخ:

- حذار... ابتعدوا، ابتعدوا...

ارتمى عتيق بكامل جسمه جانباً كي لا تسقطه عربة هاجت مطيتها. اندفع الحصان المجنون وسط أزقة السوق، محدثاً بداية هلع، ثم استدار فجأة نحو مجموعة خيم. لقد فقد السائق توازنه وسقط في تحليق وتدحرج على خيمة، فيما واصل الحصان سباقه التائه وسط صراخ الأطفال وصيحات النساء قبل أن يختفي خلف أنقاض مزار.

لقد شمّر عتيق على أذيال صداره الطويل وضرب على مؤخرته كي ينفض عنها الغبار، كما اعترف له رجل جالس على شرفة دكان، قائلاً:

- ظننت أنك هلكت.

تعرّف عتيق على مِرْزا شاه. اقترح عليه هذا الأخير كرسياً.

- أدعوك على شاي، يا خفير.

قال عتيق وهو يترك نفسه ينهار على الكرسي:

- أقبله بصدر رحب.

- يبدو أنك غلقت الدكان باكراً هذا اليوم.

- من الصعب أن يكون المرء سجين نفسه.

قطّب مرزا شاه حاجباً:

- هل تريد القول بأنه لم يبق سجين في زنزاناتك؟

- إنها الحقيقة. آخرها رُجِمت هذا الصباح.

- الفاجرة؟ لم أحضر مراسيم الرجم، ولكن وصلتني الأخبار...

اتكأ عتيق على الجدار، ضمّ أصابعه على بطنه وتابع أنقاض ما كان سابقاً أجمل شوارع كابول، وأكثرها حيوية.

- أجدك حزيناً يا عتيق.

- حقاً؟

- إنه الشيء الأوّل الذي يجلب الانتباه. بمجرد أن رأيتك، قلت مع نفسي، تنشّت... إن العفريت عتيق ليس على ما يرام.

هزّ عتيق كتفيه. إن مرزا شاه صديق طفولته. كَبُرا معاً في حيّ متواضع وقد عرفا الأشخاص أنفسهم والأماكن نفسها. اشتغل والداهما في معمل صغير للزجاج. وكانا مثقلين بالهموم التي صرَفَتهما عن الاهتمام بالطفلين. فمن الطبيعي إذاً أن يتَجَنّد مِرْزا في الجيش عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، فيما مارس عتيق مهنة سائق بديل بقرب صاحب شاحنة قبل أن يجرّب عدداً هائلاً من المهن الصغرى التي تكسبه في

النهار ما تسحبه منه الليالي. افترق الصديقان إلى غاية احتلال الروس للبلد. كان مرزا شاه من أوائل العساكر الذين هربوا من وحداتهم للانضمام إلى صفوف المجاهدين. وبفضل شجاعته والتزامه، تدرّج بسرعة إلى أن أصبح برتبة "تاج". التقى به عتيق في الجبهة وعمل تحت قيادته بعض الوقت قبل أن توقف قذيفة اندفاع جهاده. نقل إلى بيشاوَر للإسعاف. واصل مرزا الحرب بتفان عجيب، وبعد انسحاب القوات السوفييتية، تلقى اقتراحات لتولي مسؤوليات في الإدارة ولكنه رفضها. لم تكن تغريه السياسة ولا السلطة، لكنه بفضل علاقاته، أنشأ مؤسسات صغيرة استعملها لتمويه وتغطية استثماراته الموازية، وبالأخص في التهريب وتجارة المخدرات. لقد قلّل وصول الطالبان إلى السلطة من حماسه الفياض دون أن يفكّك شبكاته، حيث تطوّع بالتضحية بعدد من حافلاته وبعض الأشياء الأخرى غير ذات قيمة في سبيل القضية، كما ساهم بطريقته في جهود الحرب التي يخوضها الحثالة المبشرون بالخلاص ضد رفاقه القدامى في السلاح ونجح في الحفاظ على امتيازاته. يعرف مرزا أن إيمان بائس قلّ ما يقاوم إغراءات الربح السريع؛ لهذا فإنه لا يتوانى عن تقديم الهدايا والعمولات لأسياد البلد الجدد،

فتمكّن هكذا من قضاء أيام هادئة وسط الإعصار. مرات عديدة، اقترح على صديقه الدائم أن يشتغل لصالحه. ولكن عتيق كان يتملّص من العرض بانتظام، مفضلاً البؤس في الحياة الدنيا الزائلة عوض عذاب جهنم الخالدة.

أدار مِرزًا سبحته حول أصابعه وهو يتفرّس في سحنة صديقه. تحرّج هذا الأخير فتظاهر بالانشغال بأظافره.

- ما هو الشيء الذي يقلقك يا حارس المساجين؟

- إنني أتساءل.

- أمِن أجل هذا كنت تحدث نفسك قبل قليل؟

- ربّما.

- ألم تجد أحداً للحديث معه؟

- هل هذا ضروري؟

- على حسب سريان الأمور، لِمَ لا؟ كنتَ غارقاً في همومك إلى حدّ لم ترَ وصول العربة. حينها، قلت مع نفسي أن عتيق، إما أنه بدأ يفقد عقله، أم أنه يخطّط لانقلاب عسكري خطير...

أوقفه عتيق بضجر ظاهر:

- احذَر مما تقول. يمكن أن يؤخذ كلامك مأخذ الجدّ.

- أريد التنكيد عليك قليلاً.

- أنت تعرف بأن مثل هذا النوع من المزاح لا مجال له من الإعراب في كابول.

ببطء، ربّت مرزا بكفه على ظهر يد صديقه كي يهدِّئه.

- يا رجل، أنسيت بأننا أصدقاء أعزاء منذ الطفولة؟

- المغامرون لا ذاكرة لهم.

- لم نكن نخفي شيئاً عن بعضنا البعض.

- لم يعد الأمر ممكناً اليوم.

تشنّجت يد مرزا.

- ماذا تغيّر اليوم يا عتيق؟ لا شيء، لا شيء إطلاقاً. إنها الأسلحة نفسها التي تنتقل بين الأشخاص، والوجوه نفسها التي تعرّض، والكلاب نفسها التي تنبح والقوافل نفسها التي تمرّ. لقد عشنا دائماً بهذه الطريقة. ذهب الملك، عوّضته معبودات أخرى. صحيح أن الشعارات قد تغيّرت، ولكنها تطالب بالتعسّفات نفسها. لا ينبغي أن ننخدع. تبقى الذهنيات هي نفسها التي سادت منذ قرون. إن الذين ينتظرون انبثاق عهد جديد في الأفق يضيعون وقتهم. فمنذ أن خلقت الدنيا، يوجد دائماً أولئك الذين يعيشونها كما هي، وأولئك الذين

يرفضون قبولها. طبعاً، إن الحكيم هو ذاك الذي يأخذ الأمور كما تأتيه. إنه يفهمها على حقيقتها. وأنت أيضاً، ينبغي عليك أن تفهم. أنت قلق لأنك لا تعرف ماذا تريد بالضبط، هذا كل ما في الأمر. والأصدقاء يوجدون لمساعدتك على إيضاح الرؤية. إذا كنت لا زلت تعتقد بأنني صديقك، حدثني عن مشكلتك، لعلني أستطيع تقديم يد العون.

تنفس عتيق تنفساً عميقاً. سحب معصمه من يد مرزا، بحث بداخل عينيه عن سند ما؛ وبعد تردّد قصير، استسلم:

- إن زوجتي مريضة. قال لي الطبيب بأن دمها يتحلّل بسرعة، وبأن مرضها لا علاج له.

بقي مرزا حائراً لفكرة أن يذهب رجل إلى حدّ الحديث عن زوجته في الشارع، ثمّ، لمس لحيته المصبوغة بالحناء، هزّ رأسه وقال:

- أليست هذه إرادة الله؟

- ومن تسوّل له نفسه بالوقوف ضد إرادة الله، يا مرزا؟ لست من هؤلاء، على كل حال. أرضى بقدري رضاءً تاماً، وبخشوع كلي، غير أنني وحيد وحائر. ليس لديّ أحد يساعدني.

- ولكن المسألة بسيطة: طلّقها.

ردّ عتيق بسذاجة، ولم يلاحظ الازدراء المتنامي الذي استولى على وجه صديقه، المنزعج فعلاً من الإطالة في موضوع يراه لا يستحق كل هذا الانشغال:

- لم تعد لها عائلة. توفى والداها، ذهب إخوتها، كل إلى وجهة غير معروفة. ثمّ، لا يمكنني رميها هكذا، غير معقول.

- ولِمَ لا؟

- لا تنسى بأنها أنقذت حياتي.

اندفع مرزا بجسمه إلى الوراء، كأنه فوجئ بغتة بذريعة الحارس. مطّ شفتيه، مال بوجهه على كتف بحيث يمكنه مراقبة محدثيه بطريقة غير مباشرة. صاح:

- ترّهات... الله وحده يحي ويميت. جُرحت وأنت تجاهد في سبيل الله. بما أنه لا يمكن أن يبعث لك الملك جبريل، وضع هذه المرأة في طريقك. لقد عالجتك بإرادة الله. لم تفعل إلا ما كتبه الله لها. وأنت فعلت من أجلها أضعاف ما فعلَتْه لك: إنك اتخذتها زوجة لك. ماذا يمكنها أن تنتظر من الحياة أكثر مما فعلته لها، هي التي تكبرك بثلاث سنوات، وكانت في ذلك العهد عانساً بلا حماس ولا جمال؟ هل يوجد سخاء أكبر بالنسبة لامرأة تمنح لها سقفاً، حماية، شرفاً واسماً؟ لست مديناً لها بشيء. بالعكس، هي التي ينبغي

أن تنحني أمام نبلك، يا عتيق، أن تقبّل أصابع قدميك كلما نزعت نعليك. إنها لا تمثل شيئاً ذات قيمة خارج ما تمثله أنت بالنسبة إليها. ليست سوى مرؤوسة. زيادة على أنه لا ينبغي لرجل أن يكون مديناً لامرأة في أي شيء. إن شقاء البشر آت من سوء التفاهم هذا بالذات.

فجأة، قطّب حاجبيه:

- هل جُننت إلى حدّ أصبحت تحبها؟

- إننا نعيش معاً منذ حوالي عشرين سنة. ليس هذا بالأمر الهيّن.

أحسّ مرزا بسخط يسري في جوارحه، ولكنه تمالك نفسه كي لا يغضب صديق طفولته.

- يا صديقي الشقي، إنني أعيش مع أربع نساء. تزوجت الأولى منذ خمس وعشرين سنة؛ والأخيرة منذ تسعة أشهر فقط. ولا أشعر باتجاههن جميعاً إلا بالشك وعدم الثقة، لأنني لم أدرك في أية لحظة كيف يشتغل مخّهن. وأنا مقتنع أنني سوف لن أمسك أبداً بخيوط فكر النساء. كما لو أن تفكيرهن يدور في الاتجاه المعاكس لعقارب الساعة. أن تعيش سنة أو قرناً مع عشيقة، أمّ أو بنت من صلبك، ستشعر دوماً بالفراغ، كما لو أن حفرة مستترة تعزلك تدريجياً كي تعرضك أحسن لتقلبات إهمالك. فمع مثل هذه الكائنات المنافقة

وغير المتوقعة بشكل غريزي، فكلما اعتقدت أنك روّضتها، قلّت حظوظك في تجاوز شرورها. لن تحصّن نفسك ضد سمومهن حتى وإن ربيت عقرباً في حضنك. أما بالنسبة لعدد السنوات، فلا يمكنه جلب الهناء في بيت حيث يخدع فيه حب النساء هشاشة الرجال.

- لا يتعلق الأمر بالحبّ.

- ماذا تنتظر إذاً كي ترميها إلى الشارع؟ طلّقها وامنح لنفسك بكراً سليمة وقوية البنية، تحسِن السكوت وخدمة زوجها بلا ضوضاء. لا أريد أن أفاجئك بعد اليوم تتحدث بمفردك في الشارع كالمعتوه. وبالأخص ليس بسبب أنثى. هذا الأمر يغضب الله ورسوله.

سكت مرزا فجأة. توقف شاب عند عتبة الدكان، البصر تائه والشفتان منزوفتان؛ طويل القامة، وجهه أمرد وجميل يزينه عقد من الزغب. يتدلى شعره الطويل الأجعد على كتفيه اللتين تبدوان ضامرتين كما كتفي فتاة. قال مرزا بفظاظة:

- ماذا تريد؟

وضع الرجل إصبعاً على صدغه كي يستعيد صحوته، الحركة التي زادت من ضجر مرزا .

- أنطق أو عُد من حيث أتيت. ألا ترى بأننا نتحدث؟

انتبه محسن رمات إلى أن الرجلين قد أمسكا بكرباجيهما وهما يستعدان لسوطه على الوجه. رجع القهقري يتلعثم بالاعتذارات وابتعد باتجاه المخيّم. قال مرزا ساخطاً:

- أنظر إلى هؤلاء الأجلاف. لا يتحرجون أبداً من إزعاج الغير.

هزّ عتيق رأسه مدمدماً. أيقظه هذا التدخل المباغت. لقد أدرك فحش أسراره، ولام نفسه على عدم مقاومة الرغبة الجامحة في إفراغ همومه الوسخة على شرفة مقهى حقير. إثر ذلك خيّم صمت مزعج بينه وبين صديق طفولته. لم يجرؤ أحد على النظر إلى الآخر، تخندق أحدهما خلف تأمل خطوط يديه، فيما انشغل الثاني بالبحث عن صاحب المقهى.

3

دفع محسن رمات باب منزله بيد مترددة. لم يذق طعم الأكل منذ الصباح، وقد أنهكه التسكع عبر أزقة المدينة وأسواقها. داخل الدكاكين، في السوق، في الساحة العمومية، في كل مكان رفسته قدماه، ينتابه إحساس عظيم باليأس، فيجرّه خلفه طولاً وعرضاً كما كرة المحكومين عليهم بالأشغال الشاقة. فخلال السنة الماضية، توفى صديقه الوحيد، الحميمي، بمرض الإسهال، ولم يتمكن من إقامة علاقة صداقة أخرى، إذ يجد الناس صعوبة في التعايش مع ظلهم الخاص. لقد أضحى الخوف اليقظة الأكثر فعالية، كذلك تأجّجت الشكوك أكثر من أي وقت مضى، وبسرعة مذهلة يساء تأويل مسارّة أو خبر، ولا يغفر الطالبان للألسنة المتهوّرة. وبما أن الناس لم يعودوا يتقاسمون إلا الشقاء، أضحى كل فرد يفضل احتضان نوائبه في زاوية، كي لا يثقل كاهله بنوائب الغير. أما في كابول،

فقد صنِّفت الأفراح ضمن المحرمات الكبرى، وأصبح من غير المفيد البحث لدى الغير عن أي مساندة أو تعزية. أي تعزية يمكن تقديمها في عالم من الفوضى، مليء بالفظاظة واللامعقول، نزفته سلسلة من الحروب الشرسة؟ عالم هجره الأولياء الصالحون، مسلّم لنهب الجلادين والغربان، بحيث أصبحت الصلوات الخاشعة عاجزة عن إرجاعه إلى صوابه؟

لم يبق شيء بداخل الغرفة، باستثناء حصير بمثابة سجاد، ووسادتين مثقوبتين وحمالة خشبية صغيرة منخورة عليها المصحف الشريف. لقد باع مُحسن جميع أثاثه، الواحد وراء الثاني، كي يصمد أمام الندرة الزاحفة. الآن، لا يملك حتى ما يعوض به الزجاج المكسور. لقد أصبحت النوافذ عمياء، بمصاريعها المرتجة. وكلما مرّ ميليشيّ في الزقاق، أمره بإصلاحها بلا أدنى تأخر: يمكن لأي مار أن يصدَم بوجه امرأة سافر. فعكف مُحسن على تغطية النوافذ بكتان سميك: منذ ذلك الحين، توقفت الشمس عن زيارة بيته.

نزع نعليه على العتبة الصغيرة وانهار أرضاً. ارتفع صوت امرأة خلف ستار في عمق الصالة سائلاً:

- هل آتيك بالأكل؟
- لست جائعاً.
- قليلاً من الماء؟
- إذا كانت باردة، لا أقول لا.

طنطن صليل داخل الغرفة المجاورة، ثمّ أزيح الستار ليكشف عن امرأة جميلة كالبدر. حطّت قنينة قدّام مُحسن واتخذت مكانها فوق الوسادة المقابلة. ابتسم مُحسن. إن مُحسن يبتسم دائماً حينما تظهر زوجته أمامه. إنها رائعة الجمال، يشع وجهها بنضارة لا تنضب. إنها برغم الشقاء اليومي وحداد مدينة سلّمت لوساوس وجنون الرجال، لم تظهر التجاعيد على وجه زُنَيرَة. صحيح أن خديها فقدا شيئاً من لمعانهما السابق، وأن ضحكتها لم تعد ترن في أي مكان، ولكن عينيها الواسعتين، اللامعتين كما الزمرد، لا تزالان تحافظان على سحرهما الخالص.

تناول محسن القنينة وقرّبها إلى شفتيه.

انتظرت زَوْجته أن ينتهي من الشرب، فقالت:

– تبدو مرهقاً.

– مشيت اليوم كثيراً. أصابع قدميّ ملتهبة.

لمست المرأة بطرف أصابعها أصابع قدمي زوجها قبل أن تبدأ في مَسْدها بلطف. اتكأ محسن على مرفقيه واستسلم للمسات زوجته.

– انتظرتك عند الغذاء.

– نسيْتُ.

– نسيتَ؟

– لا أعرف ماذا حدث لي اليوم. لم أشعر أبداً

بهذا الإحساس سابقاً، حتى حينما فقدنا منزلنا. كنت تائهاً، غائباً، أهيم على وجهي بلا هدف، عاجزاً عن التعرف على الشوارع التي كنت أذرعها طولاً وعرضاً دون أن أتمكن من عبورها. شيء غريب حقاً. كنْت غارقاً في ضباب كثيف، لا أقدر على تذكر طريقي ولا على معرفة أين أريد الذهاب.

- يبدو أنك بقيت طويلاً تحت الشمس.

- لا يتعلق الأمر بضربة شمس.

فجأة، امتدت يده نحو يد زوجته وأجبرها على إيقاف المسد. رفعت زُنَيرة عينيها المتلألئتين، حيّرتها قوة الضغط اليائس حول معصمها.

تردّد مُحسن لحظة ثمّ سأل بصوت مبحوح:

- هل تغيّرت؟

- لماذا تطرح عليّ هذا السؤال؟

- أسألك إن كنتُ قد تغيّرت؟

قطّبت زُنيرة حاجبيها الرائعين كي تفكّر.

- لا أرى عما تريد أن تتحدّث.

- عن نفسي طبعاً. هل لا أزال الرجل نفسه، ذلك الذي فضّلتِه على الآخرين؟ هل حافظت على التقاليد السابقة، التصرّفات السابقة؟ هل تجدين أنني أتصرف عادياً، أعاملك بالحنان المعهود؟

- صحيح أن أشياء كثيرة تغيّرت حولنا. دمّرت

القنابل منزلنا. غاب عنا أهلنا وأصدقاؤنا، البعض منهم لم يعد من هذه الحياة. فقدتَ تجارتك. سلبوا مني عملي. لم نعد نعرف أكل الشُبعة وتوقفنا عن إقامة المشاريع. ولكننا لا نزال معاً، يا مُحسن. هذا هو المهم بالنسبة إلينا. إننا معاً ليساند بعضنا بعضاً. لا نملك إلا أنفسنا لتغذية الأمل. سيتذكرنا الله يوماً. وسيُدرِك لا محالة أن الشقاء المرعب الذي نعيشه يومياً لم ينل من عزيمة إيماننا، وأننا لم نتخلّ عن ديننا، وأننا جديران فعلاً برحمته.

أرخى مُحسن معصم زوجته كي يلامس وجنتها. كانت حركته ودودة، حنونة؛ فاستسلمت لها.

– يا زُنَيرة، أنت الشمس الوحيدة التي بقيت لي. بدونك، كانت لياليّ ستكون أحلك من الظلمات، وأبرد من القبور. ولكن، بربّك، صارحيني وقولي لي إن كنت قد تغيّرت إزاءك، إن أصبحت فظاً معك أو ظالماً إياك. ينتابني إحساس أن الأمور تتملّص مني، وأنني لا أتحكم في نفسي. إن كنتِ تلاحظين في سلوكي بوادر جنون، فساعديني على إدراكها. لا يضرني أن أخيِّب آمال الدنيا بأسرها ولكنني أحرم نفسي من المساس بك ولو عن غير قصد.

أدركت زُنيرة ضيق زوجها بوضوح. فتركت خدّها ينزلق في راحة يده الخائفة لتؤكّد له أنها لا تلومه على شيء.

- نعيش فترة مضنية يا حبيبي. لقد فقدنا معنى السكينة من كثرة الشكوى والأسى. فجأة، تخيفنا لحظات الهدوء ونشك في كل ما لا يهدد راحتنا.

سحب محسن أصابعه من تحت خدّ زوجته بلطف. تشوّشت رؤيته؛ اضطر إلى تثبيت عينيه في السقف وبذل مقاومة داخلية قوية كي يكبح انفعاله. ارتعدت تفاحة آدم في عنقه الضامر. كان حزنه كبيراً إلى حدّ أنه أحسّ بارتعاش يسري في وجهه، ابتداء من الوجنتين، ليمتدّ إلى غاية ذقنه ثم يعود ليرعد الشفتين. قال معترفاً:

- ارتكبت هذا الصباح فعلاً لا يخطر على البال أبداً.

تجمّدت زنيرة؛ أربكها ما قرأته في نظرته التائهة. حاولت الإمساك بيديه؛ سحبهما وطواهما إلى أعلى صدره، كما لو أنه يتصدى لعدوان. أضاف متلعثماً:

- لا أصدِّق ما حدث لي. كيف حدث ؟ كيف استطعت؟

انتصبت زنيرة، رافعة عنقها، حائرة.

بدأ محسن يلهث. يرتفع صدره وينزل في إيقاع مقلق. وبدأ يحكي، وقد أرعبته أقواله:

- تمّ اليوم رجم امرأة فاجرة في الساحة العمومية. لا أعرف كيف انضممت إلى غوغاء المعتوهين الذين

يطالبون بسفك الدماء. كنت كمن امتصه إعصار. أنا أيضاً، أردت الوصول إلى الصفوف الأولى، لأرى عن قرب هلاك البهيمة الدَنِسة. وحينما طفق شلال الحجارة ينهمر على السَقوبَة، تفاجأت بنفسي ألتقط الأحجار وأقذفها على المرجومة، أنا أيضاً أصابني جنون، يا زنيرة. كيف تجرأت على مثل هذا الفعل الشنيع؟ طوال حياتي كلها، اعتقدت أنني مُسْتَنكف ضميرياً. لم تقنعني تهديدات البعض ووعود البعض الآخر لأخذ السلاح وارتكاب جريمة القتل. قبلت أن يكون لي أعداء، ولكنني لم أسمح لنفسي أن أكون عدواً لأحد. في هذا الصباح، يا زنيرة، صرخت مع الغوغاء فقط لأنهم صرخوا، طالبت بسفك الدماء فقط لأن الحثالة طالبوا ذلك. منذ تلك اللحظة، لم أتوقف عن النظر إلى يديّ اللتين لم أعد أتعرف عليهما. مشيت في الشوارع كي أتملّص من ظلي، كي أبتعد عن فعلي الشنيع، وعند كل زاوية زقاق، عند أي ركام من الأنقاض، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع تلك اللحظة الضالة. ينتابني خوف من نفسي، يا زنيرة، لم أعد أثق في الرجل الذي يسكنني.

ذهلت زنيرة من قصة زوجها. إن محسن ليس من الذين يبوحون بضعفهم. نادراً ما يتكلّم عمّا يحزنه ولا يجهر بأحاسيسه. هكذا، حينما انتبهت إلى ذلك الحزن الثقيل في عمق عينيه، أدركت أنه لا يمكنه أن يحتفظ

به لنفسه. توقعت شقاءً من هذا النوع، ولكن ليس بهذه الضخامة.

شحب وجهها، ولأوّل مرّة، فقدت عيناها، عند اتساعهما، جوهر إشراقهما.

- رجمت امرأة؟

- وأظن أنني قد أصبتها في الرأس.

- لا يمكنك أن تفعل شيئاً من هذا القبيل، محسن. هذا ليس من شيمك؛ أنت رجل متعلّم.

- لا أعرف ماذا أصابني. وقع ذلك بسرعة. كما لو أن الراجمين سحروني. لا أتذكّر كيف التقطت الأحجار. أتذكر فقط أنني لم أتمكن من التخلص منها، وأن سعاراً لا يقهَر استولى على ذراعي... إن ما يرعبني ويحزنني في آن واحد أنني لم أحاول حتى المقاومة.

نهضت زنيرة. كما لو أنها استفاقت من إحباط. بطيئة. مُستنكرة، ولكن بلا غضب. جفّت شفتاها، بعد نضارة طفيفة. بحثت عن سند، ولم تعثر إلا عن رافدة خشبية صغيرة تنبثق من الجدار، فتشبّثت بها. انتظرت طويلاً كي تستعيد عافيتها، بلا جدوى. حاول محسن الإمساك بيدها؛ تملّصت وأسرعت نحو المطبخ متمايلة في ارتعاشات فستانها الخيالية. وفي اللحظة التي اختفت خلف الستار، أدرك محسن أنه أخطأ بالاعتراف لزوجته عن ارتكاب فعل لا يكاد هو نفسه يصدّق حقيقته.

4

تستعد الشمس للانسحاب. بحيث أن أشعتها لم تعد تنعكس على جوانب التلال بالضراوة نفسها. ومع ذلك، يدرك الشيوخ الغافون تحت السقائف، وبرغم أنهم يترقبون المساء بتلهّف، أن الليل سيكون حاراً كما النهار. تختنق كابول، محصورة بداخل حمّام جبالها الصخرية، كما لو أن كوّة من الجحيم انفتحت في السماء. إن زفرات الريح النادرة لم تعمل على إنعاش الهواء الجاف أو تجديده، بل تتسلى بتعليق الغبار في الفضاء كي تلهب العيون وتجفف الحلوق.

لاحظ عتيق شوكت بأن ظله قد تمدّد على الأرض بشكل مفرط؛ قريباً، سيؤذن الإمام لإقامة صلاة المغرب. فلقد أدخل كرباجه تحت حزامه واتجه، بخطى ضجرة، نحو مسجد الحي الذي هو عبارة عن صالة واسعة مزينة بسذاجة، بسقفها المجرّد والمئذنة التي شوّهتها قذيفة صاروخ. هناك يطوف رهط من

الطالبان حول الجامع لإيقاف المتسكعين المارين وإجبارهم، بقوة السلاح، على الالتحاق بالمصلين.

ترتفع ضوضاء من داخل الصالة الرازحة تحت القيظ. ويتدافع القادمون الأوائل للاستيلاء على الزرابي البالية التي تغطي الأرضية، بقرب المنبر الذي شغله إمام يتلو آيات من القرآن. ولقد اضطر المتأخرون إلى التخاصم حول بعض الخرق الممزقة التي يخالها البعض ريشاً. أما الباقي، فاكتفى بأرضية خشنة تترك آثاراً حادة في المؤخرة، فرحين بالاحتماء من الشمس ومن كرباج الميليشيات.

أبعد عتيق بركبته رهطاً من الشيوخ، دمدم باتجاه أكبرهم سناً كي يزيد اقتراباً من الجدار، وجلس مسنداً ظهره إلى عمود. عاد بصره العابس إلى تهديد الشيخ الذي أجهد نفسه كي يظهر، ما أمكنه، صغيراً جداً في عين السجّان.

يمقت عتيق شوكت الأشخاص المسنين، خاصة القاطنين بالحي لأن غالبيتهم من المنبوذين الوسخين، المتسولين التافهين، الذين يقضون أيامهم في ترتيل دعوات مشؤومة، ويتحسسون بأيديهم الضامرة أسمال المارين. كواسر تترقب الفُتات، وقد تجمعت هذا المساء حيث يأتي بعض المحسنين ليحطوا أواني أرز موجهة للأرامل واليتامى، ولا يتردّد هؤلاء المنبوذون من الانقضاض بقوة كي يخطفوا بعض اللقم. لهذا

السبب بالذات، يمقتهم عتيق فكلما وجدهم إلى جانبه كان يؤدي صلاته بتقزّز. إنه لا يحب تأوهاتهم عند السجود، ولا غفوتهم المرضية خلال الخطبة. فهم في نظره ليسوا إلا جثثاً أهملها حفّارو القبور، قذرون ومربكون، بعيونهم الرميصة، وأفواههم المهشمة وروائح الجيفة التي تنبعث منهم...

- أستغفر الله... تمتم عتيق. ثمّ فكّر: ها هو قلبك يمتلئ غيظاً بداخل بيت من بيوت الله، يا عتيق الشقي. أصحُ إلى نفسك. أرمِ أفكارك المسمومة خارج المسجد ولا تترك الوسواس الخناس يلوثها برجسه.

شدّ صدغيه بين يديه، حاول إفراغ ذهنه، ثمّ وضع ذقنه بتجويف رقبته، لاصقاً بصره على الأرض، خشية أن تفسد رؤية الشيوخ خشوعه.

دخل الإمام المقصورة الصغيرة ليؤذن للصلاة. وقف المصلون في حركة جماعية فوضوية وطفقوا ينظمون الصفوف. قام شخص قصير القامة، بأذنين مقرنتين وبهيئة عتروس، بجذب عتيق من طرف صداره، داعياً إياه إلى الاستقامة في الصف. انزعج السجّان، فأمسكه من المعصم ولواه خلسة ضد جانبه. تفاجأ الرجل في البداية فحاول سحب يده من القيد الذي يعصره، ثمّ عندما لم يستطع، ارتخى وهدّد بالانهيار تحت قوة الوجع. واصل عتيق الضغط لثوانٍ عديدة؛ وعندما تأكّد أن ضحيته على وشك الصراخ، أرخى قبضته. استرجع

القزم معصمه اللهب، أدخله تحت إبطه، وشقّ لنفسه مكاناً في الصف الموالي ولم يلتفت خلفه، مصعوقاً لفكرة أن يتصرف المؤمن بهذه الفظاظة داخل المسجد. تمتم عتيق مرة أخرى:

- أستغفر الله... ماذا جرى لي؟ لم أعد أتحمل الظلام ولا ضوء النهار، لا الجلوس ولا الوقوف، لا الشيوخ ولا الأطفال، لا نظرة الناس ولا أيديهم عندما تلمسني. لا أكاد أتحمل حتى نفسي. هل هي علامات الجنون فعلاً؟

بعد الصلاة، قرّر انتظار أداء الصلاة المقبلة داخل المسجد. على كل حال، لا يشعر بأي رغبة في العودة إلى بيته، ليجد سريره غير مرتّب وأواني المطبخ منسية في ماء الحوض الآسن وزوجته راقدة منكمشة في زاوية من الغرفة، رأسها معصوب في منديل متسخ ووجهها شاحب... تفرّق المصلون؛ التحق البعض بمنازلهم فيما تجمّع البعض الآخر في الساحة لتجاذب أطراف الحديث. تزاحم الشيوخ والمتسولون عند مدخل المسجد، اليد ممدودة. اقترب عتيق من مجموعة قدماء معطوبي الحرب الذين كانوا يتبادلون الحكايات حول أفعالهم البطولية. سطّر أكبرهم، عملاق أكلت لحية كثة وجهه، خطوطاً ودوائر على التراب بأصبعه المتورّم. فيما جلس الآخرون القرفصاء حوله يراقبونه بصمت. لكل واحد منهم ساق أو ذراع مبتورة. انزوى أحدهم

جانباً، وهو بلا ساقين. لقد كان متراكماً بداخل عربة يدوية، مصنوعة بحيث يستعملها ككرسي متنقل. أما العملاق، فكان أعْوَر ونصف وجهه مشوّه. انتهى من الرسم، وضع ركبة على الأرض، ويدأ يحكي بصوت خافت يتباين بشكل صارخ مع ضخامة جسده الهرقلي:

- إن ميدان المعركة شبيه بهذا. يوجد جبل في هذا المكان، وجرف هنا، وهضبتان من هناك. يجري نهر من هنا، ويدور على الجبل من الشمال. كان جيش السوفييت قد استولى على القمم ويشرف على الميدان من جميع الجهات. لقد كان أوقف زحفنا منذ يومين كاملين. ولم يكن ممكناً لنا الانسحاب بسبب الجبل الذي كان صخرياً وعارياً تماماً من أي شجرة، ويسهل للطائرات المروحية اصطيادنا بلا صعوبة. من هنا، يسقط الجرف في منحدر لا قاع له. والنهر العميق الواسع يصدّ علينا الطريق من هنا. ولم يبق إلا هذا الممر المفروض علينا، بقرب معبر، تركه لنا الروس عمداً. إنه في حقيقة الأمر، كان جحراً. لو ندخله سنُحشَر بداخله كما الجرذان. ومن جهة أخرى، لم يكن مُمكناً البقاء في موقعنا مدّة أطول. تنقصنا الذخائر والمئونة. زيادة على أن العدو قد استنجد بدعم عارم. وكانت مدفعيته المدعمة تمطرنا ليل نهار. لا وقت لنا لأخذ قسط من النوم حيث كنا في حالة يرثى لها. ولم

نتمكن حتى من دفن موتانا، حيث بدأت الجثث تتعفن وتنبعث منها روائح كريهة...

تدخّل المُقعد محتجاً:

- أمواتنا لا تنبعث منهم الروائح الكريهة. أتذكر أن قذيفة سقطت علينا بغتة وقتلت في اللحظة أربعة عشر من إخواننا المجاهدين. وكنت من بين الجرحى، وهو ما تسبب في بتر ساقيّ. نحن أيضاً كنا محاصَرين. بقينا في مخبئنا مدة ثمانية أيام. ولم تتعفن جثث أمواتنا ولم تتحلّل. بقوا ممدين قربنا في المكان الذي سقطوا فيه. ولم تنبعث منهم روائح كريهة أيضاً. لقد كانت وجوههم مشعة، وبرغم جروحهم وبرك الدماء التي تحيط بهم، تحسبهم نياماً، لا غير.

ردّ العملاق: - كان الفصل شتاءً.

- لم نكن في فصل الشتاء؛ بل كنا في عِزّ الصيف، والحرارة كانت ستقلي بيضة لو وضعتها على حجر.

قال العملاق مغتاظاً:

- ربّما كان مجاهدوك من الأولياء الصالحين.

ردّ المُقعد باندفاع: - المجاهدون كلهم أولياء الله الصالحون. (وافقه الآخرون بغمغمات وإيماءات من الرأس). لا تتعفن جثثهم ولا تطلق روائح كريهة.

- إذاً، من أين كانت تنبعث الروائح التي نتّنت موقعنا؟

- من بغالكم الميتة.

- لم تكن لدينا بغال.

- إذاً، لا يمكن أن تنبعث إلا من الروس الكفرة. هؤلاء الخنازير نتنون حتى وهم يخرجون من الحمام. أتذكّر أننا عندما كنا نسجن بعضهم، يندفع كل ذباب البلد للاقتراب منهم...

قال العملاق ضجراً:

- يا تامْريز، أتركني أنهي قصتي.

- أردت فقط أن أوضّح أن أمواتنا لا تنبعث منهم الروائح الكريهة. زد على هذا أن رائحة مسك تعطّرهم إلى غاية طلوع النهار.

مسح العملاق بيد غاضبة الرسوم على التراب ونهض. بعد نظرة جامحة على المقعد، تخطى الجدار الصغير واتجه نحو المخيّم. سكت الآخرون إلى أن اختفى، ثمّ اقتربوا بتلهف من الرجل المتراكم على العربة.

قال أقْطَع نحيف:

- على كل حال، نعرف قصته عن ظهر قلب. كم من التواءات ليصل إلى الحادث الذي جرح فيه.

قال آخر مذكراً:

- إنه مجاهد كبير.

- صحيح، ولكنه فقد عينه في حادثة وليس في معركة. ثمّ بصراحة، أتساءل إلى أي جهة ينتمي إذا كان أمواته يطلقون روائح كريهة. الحق مع تامْريز. نحن من قدماء المجاهدين. قدنا المئات من إخواننا في المعارك، لفظوا أنفاسهم بين أذرعنا أو تحت أعيننا: فلا واحد منهم انبعثت منه رائحة كريهة...

اهتزّ تامْريز داخل علبته، سوّى الوسادة التي تحت ركبتيه المشدودتين في لفائف مطاطية ونظر باتجاه معسكر الخيم كما لو أنه خشي عودة العملاق.

- فقدت ساقيّ ونصف أسناني وشعري، ولكن ذاكرتي خرجت سليمة. أتذكر أدنى تفصيل كما لو أنها حدثت بالأمس فقط. كنا في عِزّ الصيف، والقيظ في تلك السنة كان يدفع بالغربان إلى الانتحار. كنا نراها ترتفع عالياً في السماء قبل أن تترك نفسها تتدحرج كما السنادين، الأجنحة لاصقة إلى الجوانب والمنقار نحو الأمام. أقسم بالقرآن الكريم أنها الحقيقة كما أرويها لكم. كنا نسمع فرقعات القمل في ملابسنا المنشورة على الصخور المتأجّجة. إنه أبشع صيف عرفته في حياتي. أرخينا يقظتنا متأكدين أن لا أحد من الروس القذرة سيغامر خارج معسكره تحت تلك الشمس اللاهبة. ولكن الروس الكفرة انتبهوا إلى موقعنا بواسطة قمر صناعي أو شيء من هذا القبيل. لو حلقت طائرة

الهليكوبتر فوق مخبئنا، كنا سنخلي المكان في الدقيقتين المواليتين. ولكن، لا شيء في الأفق غير البطحاء والصمت. كنا بداخل جحرنا نتناول الغداء حينما سقطت القذيفة. فوق الهدف بالضبط. في الوقت المناسب والمكان المناسب. بوووم... رأيت زوبعة من النار والتراب يلقفني، ولا شيء بعدها. حينما استيقظت، كنت ممدداً تحت صخرة، يدايّ ملطختان بالدم، ملابسي ممزقة وسوداء من الدخان. لم أفهم ما جرى لي في تلك اللحظة. وبعد ذلك، رأيت ساقاً إلى جانبي. أبداً لم يتبادر إلى ذهني أن الساق هي ساقي. كنت أشعر بنفسي في حالة جيدة ولا يؤلمني شيء. كنت لا أزال دائخاً نوعاً ما. (بغتة، جحظت عيناه وأدار رأسه نحو قمّة المئذنة. ارتعشت شفتاه فيما كانت وجنتاه تتقلصان في تشنجات جامحة. ضمّ يديه كما لو أنه سيملأهما من ماء عين واستأنف الحكي برجفان في الصوت...) هكذا رأيته. تماماً كما أراكم الآن. أقسم بالقرآن الكريم أنها الحقيقة مثلما أرويها لكم. كان يحلق في الفضاء الأزرق. أجنحته بيضاء ناصعة بحيث كانت تضيء مدخل المغارة. يحلق، يحلق. في الصمت المطبق، لم تصلني لا أصوات الجرحى ولا دوي التفجيرات القريبة؛ كنت أسمع فقط الحفيف الناعم للأجنحة التي تحرّك الهواء... يا لها من رؤيا عجيبة...

سأل الأقطع بتلهف:

- هل نزل عندك؟

قال تامّريز:

- نعم. نزل إلى غاية عندي. كان يطفح بالدموع، ووجهه الأرجواني يشعّ كما النجم.

أكّد رجل قائلاً:

- إنه ملك الموت. لا يكون إلا هو. هكذا يُظهر نفسه دائماً أمام الرجال العظماء. هل قال لك شيئاً؟

- لا أتذكر. مدّد جناحيه حول جسدي، ولكنني دفعته.

ارتفعت أصوات:

- شقي أنت... كان عليك أن تتركه يلفّك بجناحيه. كان الملَك سيقودك مباشرة إلى الجنة ولا تكون في هذه الساعة التي نتحدث فيها مقعداً على عربتك، بلا معين ولا رحيم.

قدّر عتيق أنه استمع إلى ما فيه الكفاية وقرّر أن ينشّط خلايا مخّه في مكان آخر. لأن حكايات الناجين من الحرب تكاد أن تتحوّل إلى خرافات حقيقية من كثرة التكرار والتغيير حسب الظروف والأمْزجة. فكّر عتيق بجد أن على الملالي وضع حدّ لها. وانتبه بالأخص إلى أنه لا يمكن البقاء في الشوارع طول الوقت. فمنذ ساعات طويلة، وهو يحاول التهرب من واقعه الخاص؛ ذلك الواقع الذي لا يمكن تغييره ولا قصه، ولو لصديق طفولته مرزا شاه، القاسي العنيد،

المتسرّع إلى لوم الناس على القليل من الضمير الذي بقي عندهم. ومن جهة أخرى، فإنه يلوم نفسه على فتح صدره لذاك الصديق من أجل كأس شاي لم يشربه. يلوم نفسه على التهرب من المسؤولية، لأنه اعتقد خطأً أن الوسيلة الوحيدة لحل مشكل هي الابتعاد عنه. زوجته مريضة؛ هل له يد في هذا المرض؟ هل نسي كيف ضحت من أجله حينما تركته فرقته، التي هزمتها القوات الشيوعية، ضائعاً في قرية مهجورة؛ كيف خبأته، وعالجت جروحه خلال أسابيع؛ كيف تمكنت من نقله على ظهر بغل، أياماً وليالي، عابرة أقاليم خطيرة، تحت عواصف ثلجية إلى غاية بيشاوَر؟ الآن، وفيما هي بحاجة إليه، يتهرّب منها بلا حشمة، راكضاً يميناً وشمالاً خلف كل ما من شأنه أن يسليه.

ولكن لكل شيء نهاية، وللنهار نهايته أيضاً. فلقد خيّم الليل؛ والناس يلتحقون ببيوتهم، والمتشردون أيضاً يلتحقون بجحورهم، والحراس عادة ما يطلقون الرصاص على الأشباح المشبوهة، بلا تحذير. يجب عليه أن يدخل هو أيضاً إلى بيته، أن يعود إلى زوجته ليجدها في الحالة التي تركه فيها، يعني متألمة ومضطربة. لقد سلك زقاقاً تتخلله أكوام من الأنقاض، توقف عند مستوى خراب، أسند ذراعه ضد الجدار الوحيد الواقف ومكث على تلك الحالة، ذقنه على الكتف، يرتكز قليلاً على ساقيه. هنا وهناك، في العتمة

المخيمة، لا تكسرها إلا أضواء خافتة بلا بريق، استرق السمع إلى بكاء أطفال رُضع. خرق عويلهم مُخّه كما السيف. انتفضت امرأة ضد صخب ذريتها، قبل أن تخرس تحت تهديد صوت رجل مزمجر. رفع عتيق رقبته، ثمّ ظهره، تأمّل آلاف النجوم المتلألئة في السماء. شيء كالشهيق هزّ حلقه. أجبر على غلق أصابعه إلى حدّ التألم كي لا ينهار. لقد تعب، تعب من الدوران بلا هدف، من الركض خلف نفحات الدخان؛ تعب من هذه الأيام الرتيبة، التي لا طعم لها، يجرجر فيها قدميه من الصباح إلى سقوط الليل. لم يفهم كيف صمد مدّة عشريتين متتاليتين للكمائن والتفجيرات والقذائف النازلة من السماء التي تسحق عشرات الأجساد حوله، لا ينجو منها الأطفال ولا النساء ولا قطعان الماشية من الغنم والجمال، ليجد نفسه في نهاية المطاف يقتات في عالم معتم وجاحد، في مدينة منقطعة تماماً، مزينة بمنصات المشانق وغاصة بخرق سقيمة: مدينة تقسو عليه وتفسده بلا رحمة، يوماً بعد يوم، ليلاً بعد ليل، تارة برفقة محكوم عليها بالإعدام في عمق زنزانة نتنة، وتارة يسهر زوجة محتضرة، أبأس من مستحق الشنق. تنهّد وهو على هذه الحال قائلاً:

– لا حول ولا قوة إلا بالله... إذا كانت هذه محنتي المكتوبة على جبيني، يا إلهي، أعطني القوة اللازمة لمواجهتها.

ضرب يدا في يد، تمتم آية قرآنية وعاد القَهْقَرى باتجاه منزله.

أوّل شيء أثار انتباه عتيق حينما دفع باب منزله هو القنديل المضيء. عادة، في مثل هذه الساعة، تكون زوجته مُسَرّة نائمة والغرف غارقة في الظلام. لاحظ السرير الفارغ، والأغطية الممدّدة بعناية على الفراش، والوسائد المسندة ضد الجدار كما يفضلها، فاسترق السمع؛ لا أنين ولا جلبة. عاد على أعقابه، فلاحظ أن الأواني نظيفة وتلمع في زاوية. حيّره هذا الأمر، لأن مُسرّة، ومنذ شهور، نادراً ما كانت تعتني بتنظيف البيت. قضّها الداء، فتقضي جلّ أوقاتها في التأوّه والانكماش حول الأوجاع التي تعصر أحشاءها. تنحنح عتيق في قبضة يده كي يعلن حضوره. أزيح ستار وظهرت مُسرّة أخيراً، بوجه مغضّن ولكنها واقفة على رجليها. اتكأت بيدها على إطار الباب، وتبدو كأنها تبذل قصارى جهدها لتبقى واقفة على ساقيها كما لو أن كرامتها متعلقة بهذه الهيئة. أمسك عتيق ذقنه بأصبعين، قطّب حاجباً نحو الأعلى، ولم يعمل شيئاً لإخفاء اندهاشه. قال:

– ظننت أن أختي عادت من بالوتشيستان.

ارتجفت مسرّة وقالت ملاحظة:

– لست مُقعدة بعد.

- ليس هذا ما أريد قوله. تركتُك هذا الصباح في حالة سيئة. لذلك، حينما رأيت كل الأمتعة في مكانها، مرتبة بشكل جيّد، والأرضية مكنوسة، فكّرت مباشرة أن أختي قد عادت. لا نملك شخصاً آخر غيرَها. إن جاراتك على علم بمرضك، ولكن لم تأتِ إحداهن، ولو مرة، للنظر في كيفية مساعدتك.

- لست بحاجة إليهن.

- إنك نزقة بشكل مفرط، مُسَرّة. لماذا ينبغي تقليب كل كلمة للنظر ما تحوي تحتها؟

أدركت مُسَرّة أنها ليست بصدد تحسين العلاقة بينها وبين زوجها. تناولت القنديل من على الطاولة وعلّقته في رافدة خشبية صغيرة من أجل إضاءة أوسع؛ وبعد ذلك، ذهبت للإتيان بصينية محملة بالأكل. قالت بنبرة تصالح:

- قطّعت البطيخ الذي بعثته لي ووضعته في النافذة ليبرد. أكيد أنك جائع. حضّرت لك طبق أرز مثلما تفضله.

تخلّص عتيق من نعليه، علّق عمامته وكرباجه على قبضة مصراع النافذة وجلس بقرب الصينية الحديدية المحدّبة. لم يعرف ماذا يقول، ولم يتجرأ على النظر إلى زوجته كي لا يؤجّج نزقها، تناول قنينة الماء

وأخذها إلى شفتيه. فاض الماء من فمه وتدفق على لحيته؛ مسح بظهر يده وتظاهر بالانشغال برغيف الشعير. قالت مسرّة مترقبة:

- عجنتها وطهوتها بنفسي. من أجلك.

أخيراً، نطق قائلاً:

- لماذا تعذّبين نفسك؟

- أريد أداء واجبي كزوجة إلى النهاية.

- لم أطلب منك شيئاً.

- لستَ مجبراً على ذلك.

جلست بصعوبة على حصير، مقابلة إياه، طاردت بصره وأضافت:

- يا عتيق، أنا أرفض الاستسلام.

- المسألة ليست هنا يا امرأة.

- أنت تعرف كم أمقت الإذلال.

حطّ عتيق عيناً عميقة عليها:

- هل قمتُ بفعل أهانك، يا مُسرّة؟

- إن الإذلال لا يوجد بالضرورة في موقف الآخرين، يكمن أحياناً في التخلي عن الاضطلاع بالمسؤولية.

- أين ذهب مخك يا امرأة؟ أنت مريضة، هذا كل ما في الأمر. أنت بحاجة إلى الراحة، كي تستعيدي قواك. أنا لست أعمى. نعيش معاً منذ سنوات عديدة،

وكنتِ دوماً صادقة في أقوالك وأفعالك معاً؛ معي ومع غيري. لستِ بحاجة إلى أن يتفاقم مرضُك كي تبرهني لي لا أعرف ماذا.

- نعيش منذ سنوات معاً، يا عتيق، ولأوّل مرة ينتابني إحساس أنني تخليت عن واجباتي كزوجة: زوجي لم يعد يكلمني.

- صحيح أنني لا أكلمك ولكنني لم أقاطعك. لقد شغلتني هذه الحرب التي لا تريد أن تنتهي، والبؤس الذي يفسد كل شيء حولنا. لست إلا سجّاناً مؤقتاً لا يعرف لماذا قبل السهر على بؤساء عوض الاهتمام بشقائه الخاص.

- إذا كنت تؤمن بالله، ينبغي أن تعتبر شقاء مرضي امتحاناً ربانياً وتصبر عليه.

- لستِ شقائي، مسرّة. تتوهمين أشياء لا حقيقة لها. إيماني بالله كبير وأقبل ما يمتحنني به ليجرّب صبري.

قطّعت مسرّة الرغيف، ومدّت قطعة لزوجها. قالت متمتمة:

- هذه فرصة طيبة للحديث بيننا، فلنحاول أن لا نتخاصم.

قال عتيق موافقاً:

- أنا معك في هذه النقطة. إنها فرصة ثمينة لتبادل الحديث بيننا، فلنتجنّب الكلام غير اللائق والتلميحات.

أنا زوجك، يا مسرّة. أحاول أنا أيضاً القيام بمسؤولياتي الزوجية. كل ما في الأمر أنني غارق هذه الأيام. لا أشعر بأي غيظ اتجاهك. ينبغي أن تعرفي هذا. إن صمتي ليس رفضاً، بل تعبيراً عن عجزي. هل تفهمين قولي يا امرأة؟

وافقت مسرّة بإيماءة من الرأس، دون اقتناع.

غطس عتيق قطعة خبز في طبق. كانت يده ترتجف؛ أما تنفسه فكان يصفّر لأنه يجد صعوبة في كبح الغضب الذي يختمر بداخله. أدخَل رقبته في كتفيه وحاول تنظيم تنفسه، ثمّ قال وهو ساخط لأنه أجبر على الشرح:

- لا أحب تبرير مواقفي. فأنا أحسّ كأنني ارتكبت أخطاء، وهذا غير وارد بتاتاً. كل ما أريده، أن أعثر على شيء من الراحة في بيتي. هل أطلب الكثير؟ ركبك الوسواس يا امرأة. تعذبين نفسك وتعذبينني معك. كأنك تستفزّينني.

- أنا لا أستفزّك.

- ربّما، ولكن هذا هو الإحساس الذي ينتابني. بمجرد أن تسترجعي قواك قليلاً، تتسارعين ببلادة إلى إجهاد نفسك كي تثبتي لي أنك لا تزالين واقفة على قدميك وأن المرض لم ينهكك بعد. بعد يومين، تنهارين فأكون أنا مجبراً على التقاطك بالفتات. كم من الوقت ستدوم هذه المسرحية؟

- اسمح لي عتيق.

تنفّس عتيق الصعداء، حرّك قطعة خبز في المرق البارد وأدخلها في فمه دون أن يرفع رأسه.

أمسكت مسرّة بطرف فستانها المتدلي ووضعته على ذراعها، ثمّ نظرت إلى زوجها الذي كان يأكل بصخب مزعج. وبما أنها لم تتمكن من الإمساك ببصره، اكتفت بالنظر إلى صلعه الذي يمتدّ واسعاً على قمّة جمجمته، كاشفاً عن رقبته المقعّرة القبيحة. ثمّ قالت بنبرة حزينة:

- منذ أيام قليلة فقط، في ليلة مقمرة، فتحت مصراعي النافذة كي أراك وأنت تغطّ في نوم عميق. كان نومك هادئاً، نوم الذين لا يعكّر صفاءَ ضمائرهم شيءٌ. ابتسامة صغيرة تنفتح بداخل لحيتك. يذكّر وجهك بثغرة إشراقة؛ كأنما تبخّرت كل المعاناة التي كابدتها، وأن الأوجاع لم تجرؤ على لمس أدنى قطعة من جسمك. كان منظراً جميلاً وهادئاً بحيث تمنيت أن لا يطلع النهار أبداً. كان النوم يحميك مما يمكن أن يغيظك. جلست بقربك. كنت أتأجّج رغبة في أخذ يدك ولكنني خشيت إيقاظك. وكي لا أستسلم للإغراء، تذكّرت السنوات التي تقاسمناها معاً، غالباً في المحن، وتساءلت إن كنا حقاً أحببنا بعضنا بعضاً في لحظات التزاماتنا القوية...

فجأة، توقف عتيق عن الأكل. ارتج معصمه حينما

مسح به شفتيه. غمغم عبارة لا حول ولا قوة إلا بالله ثمّ تفرّس في وجه زوجته، بتشنج في منخاريه. تساءل بصوت خان زيف هدوئه:

- ما بك، مسرّة؟ أجدك ذلقة اللسان هذا المساء.

- ربّما لأننا لم نتحدث مع بعضنا منذ فترة.

- وما أطلق العنان للسانك اليوم؟

- المرض... إن المرض لحظة خطيرة، لحظة حقيقة حاسمة. لا يمكن أن يخفي أحدنا شيئاً عن الآخر.

- ولكن، سبق لك أن مرضت مرات عديدة...

- أحسّ هذه المرّة أن الداء الذي يسكنني لن يذهب بدوني.

دفع عتيق صحنه وتراجع إلى غاية الجدار.

- من جهة، تحضّرين لي العشاء؛ ومن جهة أخرى، تمنعينني من تناوله. أتجدين أن هذا عدلاً؟

- اسمح لي.

- تتجاوزين الحدود، ثمّ تعتذرين. تصوري أنني لست فارغ شغل.

وقفت، مستعدّة للعودة خلف الستار.

- هذا هو السبب الذي يجعلني أتجنّب الحديث معك، يا مسرّة. أنت دوماً متأهبة للدفاع، كما الذئبة أمام الخطر. وحينما أحاول إفهامك حقيقة الأشياء، تنتفضين وتنسحبين من المناقشة.

قالت بنبرة اعتراف:

- صحيح ما تقول، ولكنني لا أملك أحداً سواك. حينما تغضب عليّ فكأنما العالم بأسره يدير لي ظهره. سأعطي كل ما أملك من أجل إرضائك. أُراكِم الأخطاء لأنني أحاول بكل ثمن أن أكون جديرة بك. اليوم، منعت على نفسي أن أزعجك أو أخيّب أملك. ورغم ذلك، لم أتوقف من ارتكاب الحماقات.

- في هذه الحالة، لماذا تصرّين على ارتكاب الحماقات؟

- إنني خائفة...

- من ماذا؟

- من الأيام الآتية. إنها ترعبني. آه، لو تحاول فقط تسهيل الأمور عليّ.

- كيف؟

- أن تعيد لي ماذا قال لك الطبيب حول مرضي.

صرخ عتيق خارجاً عن طوره:

- مرّة أخرى...

قلّب الطاولة بضربة قدم، انتصب واقفاً، انتعل حذاءه، التقط عمامته وكرباجه، وخرج إلى الزقاق.

بقيت مسرّة وحدها، فشدّت رأسها بكلتا يديها وشيئاً فشيئاً، بدأ كتفاها الضامران يرتجفان.

على بعد سقائف قليلة من هناك، كان محسن رَمات مستيقظاً هو الآخر. كان ممدداً على فراش أرضي، يداه تحت رقبته، يحدّق في شمعة تذوب ببطء بداخل مشكاة فخارية وتعكس على الجدران ظلالاً متعثرة. فوق رأسه، في زاوية السقف العاري، ظهرت رافدة خشبية معوجّة، على وشك الكسر. وفي الأسبوع المنصرم، انفصلت رقعة تراب من سقف الغرفة المجاورة، كادت تردم زُنَيرة...

زُنيرة التي تخندقت داخل المطبخ وتأخرت عن الالتحاق به.

تعشيا معاً في صمت، هو منهار، هي غائبة. لم يأكلا كثيراً، مكتفيَين بمضغ بطيء لقطعة خبز قضيا ساعة لابتلاعها. كان محسن منزعجاً. لقد ألقت حكايته حول الفاجرة التي قتلت رجماً ظلالها العكرة على البيت. وباعترافه لزُنيرة، ظن أنه سيخفف الضغط عن ضميره، ويسترجع عافيته. لم يخطر على باله في أية لحظة أنه سيصدم زوجته إلى هذا الحدّ. حاول مراراً أن يمدّ يده نحوها، ليفهمها كم هو آسف؛ ولكن ذراعه رفضت الانصياع له؛ وبقي لاصقاً إلى جانبه، كما المشلول. لم تشجعه زُنيرة. حافظت على عينيها مثبتتين في الأرض، خافضة الرأس، ولا تكاد أصابعها تلمس حافة الطاولة الصغيرة. لقد كانت تقضي وقتاً أطول لإيصال اللقمة إلى شفتيها أكثر مما تقضيه في مضغها. كانت شاردة البال، حركتها آلية، رافضة الاستيقاظ

والعودة إلى حاضرها. وبما أن لا أحد منهما كان يأكل فعلاً، رفعت الصينية وانسحبت خلف الستار. انتظرها محسن طويلاً، ثمّ ذهب للتمدد على فراشه. انتظرها هناك أيضاً. انتظرها طوال ساعتين، ربّما أكثر، ورغم ذلك لم تلتحق به زنيرة. كذلك لا ينبعث أي صوت من المطبخ يشير أنها هناك. فغسل صحنين وإفراغ سلة خبز لا يتطلب أكثر من حركتين خفيفتين. انتصب مُحْسن جالساً، صبر لحظات إضافية أخرى قبل أن يقرّر الذهاب ليتحرى الأمر. وعندما أبعد الستار، اكتشف زنيرة ممددة على حصير، تضمّ ركبتيها إلى صدرها، ملتفتة نحو الجدار. لقد كان متأكداً أنها لا تنام، ولكنه لم يجرؤ على إزعاجها. تراجع إلى الوراء بلا جلبة، ارتدى جلابية وصندلاً، أطفأ الشمعة وخرج إلى الزقاق. لقد كانت حرارة دبقة تسحق الحي. وفي أماكن متباعدة، عند سقائف الأبواب الخارجية أو أسفل الجدران، يتبادل رجال أطراف الحديث. لم يرَ محسن ضرورة للابتعاد عن المنزل، فجلس على درج العتبة، وشبّك ذراعيه على صدره وبحث في السماء عن نجمة. في تلك اللحظة بالذات، انبثق رجل أمامه كالحيوان البري وتدحرج في الزقاق بخطى ساخطة. أضاء شعاع البدر وجه الرجل المتصلّب؛ تعرف محسن على السجّان الذي كاد يصفع وجهه بكرباجه، قبل قليل، عند عتبة الدكان.

5

رجع عتيق شوكت إلى المسجد لأداء صلاة العشاء، فكان آخر من ينهض وآخر من يقف. كان بكرباجه، قبل قليل، واقفاً على عتبة الدكان.. فقضى دقائق طويلة رافعاً يديه في دعاء خاشع، يرتل الآيات والأدعية، طالباً من المولى ومن الأولياء الصالحين أن يعينوه في شقائه. لقد أجبرته جروحه القديمة في الركبة على إيقاف السجود، فالتحق بزاوية مكدسة بالكتب الدينية وحاول أن يقرأ. لم يتمكن من التركيز حيث تشابكت الكلمات في بصره وهدّدت بتفجير رأسه. بعد قليل، اضطرته الحرارة المرتفعة في داخل المعبد إلى الالتحاق بجماعات المصلين المنتشرين في الساحة. لقد اختفى الشيوخ والمتسوّلون، ولكن معطوبي الحرب لا يزالون هناك، شاهرين عاهاتهم كما تُشهَر غنائم الحرب. أما أبْتَر الساقين فكان يتربع على عربته اليدوية، يستمع بعناية إلى قصص رفاقه، مستعداً

للموافقة وللاحتجاج في آن. كذلك عاد العملاق، فجلس بإزاء الأقطع، يستمع بمجاملة بالغة إلى شيخ يروي كيف تمكن مع حفنة من المجاهدين لا يملكون إلا بندقية رشاش واحدة من توقيف زحف فرقة من الدبابات الروسية.

لم يصبر عتيق طويلاً لمبالغات الأفعال البطولية فغادر المسجد وتاه وسط الأحياء بمظاهرها الخربة، مستعيناً من حين لآخر بكرباجه كي يدفع عنه المتسولات الأكثر عناداً. ودون أن ينتبه، وجد نفسه أمام السجن، فدخل. هدّأه صمت الزنزانات، فقرّر قضاء الليل هناك. وفي الظلام الدامس، بحث عن القنديل، أشعله وتمدّد على السرير الميداني، مشبكاً أصابعه تحت رأسه، وعيناه لاصقتان بالسقف. لقد كان كلما مالت أفكاره باتجاه مسرّة يعطي ضربة قدم في الفراغ كما لو أراد التخلص منها. لقد عاد إليه الغضب، بأمواج متتالية، يؤجج خفقان قلبه ويضغط على صدره. كذلك لام نفسه على عدم فقص الجرح بصفة نهائية، ومصارحة زوجته بالحقائق الدامغة، تلك الزوجة التي ينبغي أن تحمد ربّها بكرة وأصيلاً لوضعها المفضل مقارنة مع تلك الإناث المشوّهة التي تتيه في أزقة كابول. إن مُسرّة تفرط في استغلال صبره. أما مرضها فإنه لا يشكل ظروفاً مخففة؛ ينبغي أن تتعوّد على تحمل وضعها الجديد...

غطى الجدارَ ظلٌ مخيف. ارتجف عتيق وأمسك بكرباجه. ارتفع صوت مرتعد يطمئنه:

- أنا نازيح، لا تقلق.

غمغم عتيق بغضب:

- ألم تتعلّم الطرق على الباب قبل الدخول؟

- إني محمَّل الذراعين. فلم أرد إزعاجك.

وجّه عتيق مصباحه باتجاه الزائر. لقد كان رجلاً في الستين من العمر، طويل القامة كالسارية، بكتفين مقوّسين، ورقبة قبيحة وعمامة لا شكل لها فوق شعره الأشعث. يتمدّد وجهه الضامر نحو الذقن الذي يزيده امتداداً عثنون شائب، وبدت عيناه الجاحظتان كما لو أنهما تنبثقان من جبهته تحت أثر وجع فظيع.

بقي واقفاً في العتبة، بابتسامة مترددة، منتظراً إشارة من السجان كي يتقدّم أو يعود القهقري. قال شارحاً:

- رأيت الضوء، وقلت مع نفسي إنَّ عتيق الشهم ليس على أحسن حال، يجب أن أذهب لمواساته. ولكنني لم آتِ فارغ اليدين. جئت بقليل من اللحم المُجفّف وبعض العنبيّات.

فكّر عتيق لحظة ثمّ هزّ كتفيه وأشار إلى جلد غنم ممدّد على الأرض. أسرع نازيح إلى الجلوس في المكان المشار إليه، مسروراً باستقبال السجان له، ففكّ عقدة رزمة صغيرة وحطّ سخاءه عند قدمي عتيق.

- قلت مع نفسي إنَّ عتيق يكون قد غضب من

شيء في بيته. في هذه الساعة من الليل، لا يكون في السجن الفارغ من السجناء إذا لم يكن بحاجة إلى تغيير الجوّ والأفكار. أنا أيضاً، ليست مرتاحاً في بيتي. لم يُرد والدي الذي عمّر أزيد من قرن أن يتعقّل. فقَدَ بصره واستعمال ساقيه، ولكن لسانه لا يزال قاطعاً كالسيف. نسمعه في كل وقت يرغي ويزبد. سابقاً، كنا نعطيه الأكل لإسكاته. الآن، قلّ الخير ولا نكاد نجد أكلاً نضعه تحت ضروسنا، وبما أنه فقدَ أسنانه كلها، لا شيء يصدّ لسانه. أحياناً، يبدأ بطلب الصمت، ثمّ ينطلق لسانه ولا يستطيع أحد إلجامه. وقبل يومين، رفض أن يستيقظ من نومه. هزّته بناتي، رششنه بالماء؛ فلم يتحرك. جسست نبضه، لا أثر للخفقان. قلت حسناً، لقد مات، سنخبر العائلة ونحضّر له جنازة تليق بمقامه. خرجْت لإذاعة الخبر على الجيران، ثمّ انتقلت إلى الأقارب من الأعمام والأخوال والأحفاد والأصدقاء لأخبرهم بوفاة أكبر القبيلة سنّاً. قضيت الصبيحة أتلقى التعازي ومشاعر التضامن والتآزر، وفي منتصف النهار، عدت إلى البيت. تصوّر من أجد واقفاً وسط فناء الدار يدمدم ضد الجميع؟ إنه والدي، بلحمه وشحمه، أكثر قدحاً من شتائمه، فاغراً فمه على لثّاته البيضاء. أعتقد أنه لم يعد يملك صوابه كاملاً. لا يمكن معه الجلوس إلى أكل أو الاستكانة إلى راحة. فهو بمجرد أن يرى شخْصاً يمر بقربه، ينقض عليه ويسترسل

في توبيخه. أحياناً، أفقد بدوري صوابي، وأبدأ في الصراخ ضده فيتدخل الجيران، ويتفق جميعُهم أنني أرتكب إثماً عظيماً إن لم أتحكم في أعصابي ونهرت والدي. وكي لا أُغضِب الله، أصبحت أقضي جلّ أوقاتي خارج البيت. الأكل أيضاً، أتناوله في الشارع.

هَزْهَز عتيق رأسه. حُزناً. نازيح أيضاً، كان في حالة نفسية سيئة. لقد عرفه مُفتياً في كابول منذ عشريتين. لم يكن خطيباً بارعاً ولكن دروسه في صلاة الجمعة كانت تجمع مئات المصلين. لقد كان يقطن بيتاً كبيراً، بحديقة وسياج حديدي مطرّق، وعادة ما كان يحظى بدعوات إلى الحفلات الرسمية كما الأعيان تماماً. قُتِل أولاده في الحرب ضد الروس، الأمر الذي زاد من إعلاء شأنه في نظر السلطات المحلية. لا يبدو أنه كان يشتكي من شيء، ولا أحد يعرف له أعداء. فهو يعيش في رفاهية نسبية، من المسجد إلى الدار، ومن الدار إلى المسجد. لقد كان يقرأ كثيراً؛ يفرض الاحترام بعلمه الواسع برغم أنه لم يكن يُستشار إلا في المناسبات القليلة. ثمّ فجأة، وبلا تحذير، رآه الناس ذات صباح يمشي مسرعاً على طول الشوارع ويلوّح بيديه بشكل ظاهر، العينان زائغتان والفم مزبد. قيل أولاً أن جناً سكنه، فعمل الراقون على إخراجه، دون جدوى. بعد ذلك أدخِل مستشفى المجانين مدّة شهور قليلة. لم

يسترجع كامل قدراته العقلية. أحياناً، يعود إليه قليل من الصفاء الذهني، فينعزل ليخفي العار الذي أصبح يجسده. ولكنه في غالب الأحيان، يجلس عند عتبة باب منزله، تحت مظلة ناصلة، يتابع مرور الناس والأيام بلامبالاة مماثلة.

- هل تعرف ماذا سأفعل، يا عتيق.

- كيف أعرف؟ أنت لا تقول لي شيئاً أبداً.

استرق نازيح السمع، ثمّ حينما تأكّد أن لا أحد يتصنت إليه، مال نحو السجان وأسرّ له في همس:

- إنني ذاهب...

- ستذهب إلى أين؟

نظر المفتي السابق باتجاه الباب، شدّ تنفسه واستمع. لم يكن مطمئناً، وقف وخرج إلى الزقاق يتأكّد من خلوّه من أي طفيلي، ثمّ عاد، عيناه تتلألآن بابتهاج جنوني.

- لا أعرف. إنني ذاهب وكفى. حضّرت حزمتي، عصاي ونقودي. وبمجرد أن تبرأ قدمي اليمنى، سأردّ لهم بطاقة التمويل وكل الأوراق التي بحوزتي، وأغادر المدينة دون شكر ولا توديع. سأسلك أول طريق أصادفه أمامي وأمشي إلى غاية البحر. وحينما أصل إلى الشاطئ، سأرمي بنفسي في الموج. ولن أعود إلى كابول أبداً. إنها مدينة ملعونة. لا توفّر نجاة لأحد.

يموت فيها كثير من الناس، وتعجّ شوارعها بالأرامل واليتامى.

- وبالطالبان أيضاً.

التفت نازيح بغتة نحو الباب، مفزوعاً بملاحظة السجّان، ثمّ رسم بذراعه النحيف حركة قرف ومدّ عنقه قيد أنملة قبل أن يقول متذمراً:

- إن هؤلاء يُغرِقون البَلد في ويلات حرب قد لا تحمد عقباها.

وافق عتيق بحركة من الرأس. ثمّ التقط قطعة من اللحم المُجفّف وتفحّصها بنظرة مريبة. أولج نازيح لقمتين في فمه كي يؤكّد له أن لا خطر في أكلها. تشمّم عتيق مرة أخرى قطعة اللحم قبل أن يحطّها؛ اختار فاكهة وعضّ في لحمها بشراهة.

- متى ستبرأ رِجْلك؟

- بعد أسبوعين أو ثلاثة. بعد ذلك، ودون أن أخبر أحداً، ألمّ أمتعتي وأطير. لا من سمع ولا من رأى. سأمشي إلى أن يغمى عليّ، متجهاً نحو البحر، لا أكلم أحداً، بل ولا ألتقي بأحد في طريقي. أمشي وأمشي وأمشي إلى أن يلتصِق أخمص قدميّ بنعليّ.

تلمّظ عتيق ولحس شفتيه، ثمّ تناول فاكهة ثانية، مسحها ضد صداره وابتلعها كاملة.

- تقول دائماً إنك ستذهب، ولكن أنت دائماً هنا.

- قدمي لا تزال مريضة.

- وقبل ذلك، كان خصرك يوجعك، وقبل الخصر، كان الظهر وقبل الظهر كانت العينان. منذ شهور وأنت تحدثني عن رحيلك، ولكنك لا زلت هنا. مثل الأمس ومثل الغد. لن تذهب إلى أي مكان، يا نازيح.

- ولكنني سأذهب فعلاً هذه المرة. وسأمحي آثار أقدامي من الدروب التي سأسلكها. لا أحد سيعرف أين ذهبت، وأنا لا أستطيع العثور على طريقي إن لحقت بي رغبة العودة إلى بيتي.

قال عتيق بنِية ظاهرة لإزعاجه كما لو أن مناقضة المفتي السابق المسكين سيثأر له من مصائبه الخاصة:

- لا يا نازيح، سوف لن تذهب إلى أي مكان. ستبقى مغروساً في الحي على غرار الأشجار تماماً. ليس لأن جذورك تشدّك إلى هذه المدينة، ولكن لأن الرجال أمثالك لا يعرفون المغامرة أبعد من مدى أبصارهم. يتوهمون أنهم يسافرون إلى الأقاليم البعيدة، ويسلكون الدروب الطويلة، ويخوضون الرحلات العجيبة لأنهم لا يستطيعون إنجازها.

- من أين لك بهذه المعرفة؟

- أنا سيّد العارفين.

- لا يمكنك أن تعرف ما يخبئه الغد لنا، يا عتيق. الله وحده يعلم الغيب.

- لسنا بحاجة إلى معرفة عِلم الغيب كي نتوقع

ماذا سيفعله المتسوّلون نهار الغد. غداً، عند طلوع النهار، سنجدهم في المكان نفسه، اليد ممدودة، والصوت صاهل، تماماً كما بالأمس والأيام السابقة.

- أنا لست متسوّلاً.

- في كابول، إننا جميعاً متسوّلون. وأنت، يا نازيح، ستكون غداً عند عتبة باب منزلك، تحت ظل مظلتك البالية، منتظراً أن تأتيك بناتك بغذائك التعيس، الذي ستبتلعه على حافة القارعة.

أحسّ نازيح بالقنوط يخنقه. لا يفهم لماذا لا يريد السجان التصديق بقدرته على اتخاذ مبادرة الرحيل، المألوفة عند كثير من الناس. التزم الصمت بعض الوقت، ثمّ طفق يسحب إليه حزمته الصغيرة، مقدّراً أن السجّان لم يعد يستحق سخاءه.

قهقه عتيق وقطف عمداً عنيّبة ثالثة وضعها جانباً. قال نازيح:

- سابقاً حينما كنت أتكلم، كان الناس يصدقون أقوالي.

قال السجّان معانداً:

- سابقاً، كنت في كامل عافيتك.

- وتعتقد الآن أنني فقدت صوابي؟

- للأسف الشديد، لست الوحيد من يعتقد ذلك.

حرّك نازيح ذقنه، وجِماً. وبيد تائهة قليلاً، لمّ حزمته ونهض واقفاً. قال:

- أنا ذاهب إلى بيتي.

- حسناً تفعل.

جرجر قدمَيه إلى غاية الباب، يكاد الحنق يخنقه. وقبْل أن يختفي، اعترف بصوت لا نبرة له:

- صحيح ما تقوله، عتيق. كلّ ليلة، أقول مع نفسي بأنني حتما سأذهب، وكل يوم أجد نفسي لاصقاً في مكاني. أتساءل عن طبيعة النحس الذي يشدّني إلى هذه المدينة الملعونة.

عندما ذهب نازيح، تمدّد عتيق من جديد فوق السرير الميداني وضمّ أصابعه تحت رقبته. لم يوحِ له السقف أي إمكانية للهروب الذهني، فعاد إلى الجلوس وشدّ خديه بكلتا يديه. ورويدا رويدا، تصاعد لجّ من الغضب إلى رأسه فأحسّ بتشنج في قبضتي يديه وفكيه، فانتصب واقفاً ليعود إلى بيته، مقسماً أنه سوف لن يلاطف زوجته إن هي تمادت في موقف الضحية المكفّرة لذنوبها.

6

اطمأن محسن رمات، إذ يبدو أن الليل قد لطّف مزاج زوجته. لقد استيقظت باكراً هذا الصباح، هادئة الأعصاب، عيناها أكثر جاذبية من أي وقت آخر. فكّر مُحسن أنها ربما نسيت خلاف الأمس وستتذكّره حتما وتعود إلى عبوسها. ولكن زُنيرة لم تنسَ؛ بل فهمت أن زوجها كان مضطرب البال وأنه بحاجة إليها. إن لومها إياه، بسبب هذا التصرف البدائي، البائد، المنفّر والأحمق، تصرف عبثي ولكنه يكتسي معناه ضمن سياق الوضع الأفغاني، تصرف بشع ندِم على ارتكابه ويؤنبه ضميره، وذلك لا يزيده إلا هشاشة. فالوضع في كابول يتدهور من السيّئ إلى الأسوأ، ويعصف في انجرافه البشر وعاداتهم. إنها الفوضى بداخل الفوضى، الطوفان بداخل الطوفان، والويل للمتهوّرين إذ سيضيع الشخص المعزول نهائياً. بالأمس القريب، كان مجنون يركض في زقاق الحي ويصرخ بأعلى صوته أن الله قد فشل

في مهمته. بكل تأكيد، كان ذلك الشخص المسكين جاهلاً بحالته، وبما حدث لصفاء ذهنه. ولم يقدّر رجال الطالبان جنون الرجل الذي يرفع عنه الكلفة والحرج، بل قيّدوه في الساحة العمومية، معصوب العينين، مكموم الفم، وجلدوه إلى حدّ الموت.

ليست زُنيرة من أهل الطالبان، وزوجها ليس مجنوناً؛ إذا ضلّ لحظة، فترة الهستيريا الجماعية، فلأن البشاعة اليومية أضحت أقوى بكثير من اليقظة، والانحطاط البشري أعمق من قاع جهنّم. إن محسن بصدد الاصطفاف مع الآخرين، والتشبه بضيقهم، والتماثل مع تقهقرهم. إن تصرفه لَهُو الدليل القاطع على أن كل شيء يمكن أن ينقلب رأساً على عقب، بلا سابق إنذار.

لقد كان الليل طويلاً للاثنين معاً بحيث بقي محسن جالساً على الأرضية إلى غاية أذان الفجر، مشلولاً في هلعه. زنيرة أيضاً، لم يغمض لها جفن ثانية واحدة. انكمشت على نفسها فوق الحصير، واحتمت بذكرياتها البعيدة، في وقت كانت أغاني الأطفال ترتفع من الساحات المغبرة التي قبّحت المشانق منظرها اليوم. لم تكن الأيام كلها أعراساً، ولكن لا شخص غريب يصرخ منددا بتدنيس المكان عندما ترفرف طيارات الورق في الفضاء، ويترقب الأطفال سقوطها مزهوين. صحيح أن يد محسن أضحت تحيط نفسها باحتياطات

كثيرة قبل أن تلمس يد حبيبته، ولكن هذا لا يقلل في شيء من الوجد الذي يؤجّج عشقهما، الواحد اتجاه الآخر. هكذا هي التقاليد، وعليهما بالتأقلم معها. إن الكتمان لا يزعجهما، بل يحافظ على حبهما من عين الحسود، ويضيف مسحة ساحرة ونشوة مذهلة للرعشات التي تختلج بصدريهما في كل مرة تتمكن أصابعهما من التملص من الممنوعات. لقد تعرفا في الجامعة. هو ابن بورجوازي؛ هي ابنة عين من أعيان المدينة. كان يدرس العلوم السياسية بهدف التوجه إلى مهنة الدبلوماسية؛ فيما كانت تطمح إلى الظفر بوظيفة في سلك القضاء. لقد كان شاباً بلا مشاكل تذكر، متديناً بلا إفراط؛ وكانت هي مسلمة مستنيرة، ترتدي فساتين محتشمة، وأحياناً سراويل عريضة، والخمار ظاهر للعيان، وتناضل بنشاط من أجل تحرير المرأة. لقد كان حماسها يتساوى مع الإطراءات التي تتلقاها. إنها فتاة متألّقة. وكان جمالها يهيّج النفوس. لا يمل الشباب من التحديق إلى مفاتن جسدها حيث يحلم الجميع باتخاذها زوجة لهم. ولكن اختيارها وقع على محسن؛ وقعت في حبّه من النظرة الأولى. كان لبقاً، ويحمرّ أسرع من عذراء حينما تبتسم له. تزَوَّجا في سنّ مبكرة وبسرعة، كما لو أنهما توقعا أن الأسوأ كان يتربص بهما عند أبواب المدينة.

لم يخفِ محسن انفراجه. بل اجتهد لإظهاره بلا

تحفظ أمام زوجته، كي تقدّر إلى أي حدّ يشتاق إليها كلما أدارت له ظهرها. إنه لا يتحمّل عبوسها؛ إنها آخر حبل يربطه إلى شيء ذي قيمة في هذا العالم.

التزمت زُنيرة الصمت. ولكن ابتسامتها كانت أفصح. ليست تلك الابتسامة الكبيرة التي يعرفها عنها زوجها، ومع ذلك تكفي لسعادته وزيادة.

قدّمت له فطور الصباح وجلست على المخدّة، شبّكت يديها على ركبتيها. طاردت عيناها الحوريتان نفث دخان قبل أن تحطّا رحالهما على عيني زوجها وقالت:

- إنك استيقظت باكراً هذا الصباح.

ارتجف، تفاجأ بسماعها تخاطبه كأن شيئاً لم يكن. كان صوتها حنوناً، أقرب إلى صوت الأمّ؛ استنتج أن الصفحة قد طويت.

أسرع محسن في ابتلاع قطعة الخبز التي كادت تخنقه. مسح فمه بمنديل وأسرّ لها:

- ذهبت إلى المسجد.

قطّبت حاجبيها الرائعين:

- على الساعة الثالثة صباحاً؟

ابتلع ما تبقى في فمه كي يسرّح صوته، بحث عن عذر مقبول وغامر:

- انتابني أرق، فخرجت أمام الباب لعلي أجد شيئاً من البرودة.

- الحق معك، حرارة هذه الليلة خانقة.

اتفق الاثنان على الاعتراف بأن الرطوبة والناموس يعكران نومهما في الليالي الأخيرة. أضاف محسن أن غالبية الجيران لجأوا إلى الشارع هروباً من قيظ البيوت، وأن بعضهم لم يغادره إلا عند الفجر. ثمّ دار الحديث حول قسوة الفصل، والجفاف الذي يسود البلد منذ سنوات، والأمراض التي تتساقط على العائلات كما الغربان المجنونة. تكلما عن كل شيء وعن لا شيء في آن واحد، ولم يشيرا في أية لحظة إلى خلاف الأمس ولا إلى تنفيذ الإعدامات العمومية الذي أصبح شيئاً مألوفاً. فاقترح مُحسن:

- ما رأيك لو نقوم بدورة في السوق؟

- إننا لا نملك مالاً لمثل هذا الخروج.

- لسنا مجبرين على الشراء. سنكتفي بإلقاء النظر على تلك الأشياء القديمة التي يسمونها تحفاً.

- وما الفائدة من هذا؟

- لا شيء، ولكن سيسمح لنا بالمشي قليلاً.

ضحكت زُنيرة بلطف، سلّها مزاح زوجها المؤثر.

- ألست جيداً هنا؟

شكّ محسن في فخّ. بيد حرجة، حكّ شعيرات خديه، ومطّ شفتيه:

- لا، ليس هذا هو المقصود. كل ما في الأمر أنني أردت الخروج معك. كما في أيامنا الجميلة.

- لقد تغيّر الزمان.

- نحن لم نتغيّر.

- ومَن نحن؟

اتكأ محسن على الجدار وشبّك ذراعيه على صدره. حاول التفكير في سؤال زوجته، وجد أنها تبالغ:

- لماذا تتلفظين بهذه الحماقات؟

- لأنها الحقيقة، يا محسن. لسنا شيئاً يذكر. لم نتمكن من الحفاظ على مكتسباتنا، لذلك صادرها الصبيان الطالبان. يسعدني الخروج معك، كل يوم، كل مساء، أدس يدي تحت ذراعك، وأترك نفسي أنساق وسط الحشد. إنه شيء رائع، أنتَ وأنا، نقف الواحد بقرب الثاني، نتفرّج على واجهة مضيئة أو نجلس إلى طاولة، نتبادل أطراف الحديث ونشيّد المشاريع العظيمة. ولكن، هذا غير ممكن الآن. ستوجد دوماً فزّاعة برائحتها النتنة، مدجّجة بالسلاح، كي تعيدنا إلى الأمر الواقع وتمنعنا من الجهر بالحديث إلى بعضنا البعض في الهواء الطلق. أُفضِّل الحجْرَ على نفسي بين أربعة جدران، عوض التعرض إلى مثل هذه الإهانة. هنا على الأقل، حينما تعكس المرآة صورتي، لا أحتمي وراء ذراعيّ.

لم يوافق محسن رأي زوجته. مطّط شفتيه أكثر، أظهر لها فقر الغرفة والستائر البالية المغطية للنوافذ

المتعفنة، والجدران المنقوشة والروافد الآيلة على السقوط فوق رأسيهما.

- لسنا في بيتنا، زُنيرة. بيتنا الذي بنينا فيه عالمنا خرّبته قذيفة. ليس هذا المكان إلا ملجأً. ولا أريد أن يتحوّل إلى قبر لنا. فقدنا ثروتنا؛ ولا أريد أن نفقد عاداتنا الجميلة. إن وسيلة الكفاح الوحيدة التي بقيت لنا، لرفض التعسف والبربرية، هي أن لا نتخلى عن تربيتنا. نشأنا على أحسن تربية، لا إفراط ولا تفريط، عين على حق الله علينا، وعين على حق الحياة الدنيا علينا كبشر زائلين؛ وعرفنا عن قرب الثريات والمصابيح الكهربائية كي لا نكتفي بضوء الشمعة الخافت فقط، وذقنا أفراح الحياة فوجدناها لذيذة كما أفراح الآخرة. لا نقبل أن نعامَل كالقطيع.

- أليس هذا ما أصبحناه؟

- لست متأكداً من هذا. استغل الطالبان لحظة ضبابية كي يعطوا ضربة مرعبة للمغلوبين. ولكنها ليست الضربة القاضية. ومِن واجبنا أن نقنع أنفسنا بهذه الحقيقة.

- كيف؟

- بعدم الاكتراث باستبدادهم. سنخرج، أنتِ وأنا. صحيح أننا لن نشدّ يد بعضنا البعض، ولكن لا شيء يمنعنا من المشي جنباً إلى جنب.

رفضت زُنيرة بحركة من رأسها.

- لا أريد أن أعود إلى بيتي بقلب مريض. ستفسد فظائع الشوارع يومي بلا أدنى فائدة. أنا عاجزة عن المرور قرب بشاعة وأتصرف كأن شيئاً لم يكن. من جهة أخرى، أرفض ارتداء الشادور. إنها البردعة التي تذلني أكثر من غيرها. لا يحدث قميص المنبوذين أضراراً لكرامتي أكثر من هذا الغطاء الجنائزي الغريب الذي يشيّئني بمحو وجهي ومصادرة هويتي. هنا، على الأقل، إنني أنا، زنيرة، زوجة محسن رمات، اثنان وثلاثون سنة، محامية سرّحتني الظلامية، بلا محاكمة ولا تعويضات، ولكن بنفاذ بصيرة كافية كي أمشط شعري يومياً وأسهر على زينتي كما على بؤبؤتي عينيّ. بهذا الشادور اللعين، لا أحسّ أنني إنسانة ولا حتى بهيمة، بل إهانة أو خزي ينبغي إخفاؤه كما العاهة. من الصعب عليّ تحمّل مثل هذا العبء، خاصة بالنسبة لمحامية سابقة، مناضلة من أجل تحرير وترقية حقوق المرأة. من فضلك، لا تفكّر بتاتاً أنني أتدلّل، أبحث عن البهرجة. كم يسرّني أن أفعل، ولكن، للأسف، نفسي منقبضة. لا تطلب مني التخلي عن اسمي، عن قسمات وجهي، عن لون عينيّ وشكل شفتيّ من أجل نزهة عبر البؤس والخراب؛ لا تطلب مني أن أكون أقل من ظلّ، فحيح ثوب مجهول الهوية يسري في رواق

عدواني. أنت تعرف كم أنا سريعة التأثر، محسن؛ ألوم نفسي إن أزعجتك في حين تريد فقط إدخال قليل من السرور إلى نفسي.

رفع محسن يديه. فجأة، أحست زُنيرة بالحزن تجاه هذا الرجل الذي لم يعد قادراً على تحديد موقعه في مجتمع انقلب رأساً على عقب. في حقيقة الأمر، قبل استيلاء الطالبان على الحكم، كانت تنقصه روح المبادرة والصرامة في المواقف، فكان يكتفي بالغرف من ثروته عوض الاندفاع في مشاريع متطلبة. لم يكن كسولاً؛ يمقت الصعوبات ولا يعقّد من مهماته قط. إنه صاحب إيراد، وزوج ممتاز، حنون ومراع للظروف. لم يكن يحرمها من شيء، ولا يرفض لها طلباً ويتنازل بسهولة لطلباتها بحيث بدا لها أحياناً أنها تستغل طيبته. هكذا هو، اليد على القلب، أكثر سرعة إلى القول نعم من طرح الأسئلة. لقد هدّته التغيّرات المتعددة التي أحدثها الطالبان وأوقعته في حيْص بيْص. فقد محسن معالمه، كما فقد قوّة خلق معالم أخرى. فقد ثروته وامتيازاته، أهله وأصدقاءه. أضحى في رتبة المنبوذين، يقتات يوماً بعد يوم، مؤجلاً إلى تاريخ غير معلوم الوعد بمسك أمور حياته بيده. أخيراً، قالت زُنيرة مستسلمة:

- طيّب، أنا موافقة، سنخرج. أفضِّل مواجهة ألف خطر كي لا أراك منهاراً بهذه الصفة.

- لست منهاراً، زُنيرة. إذا أردت البقاء في البيت، فلك ذلك. أؤكّد لك أنني لن ألومك على شيء. أنت محقّة. شوارع كابول بشعة. لا نعرف ماذا ينتظرنا بها.

ابتسمت زُنيرةِ لأقوال زوجها التي تتباين، بشكل صارخ، مع السحنة المؤسفة التي ترتسم على وجهه. قالت:

- أنا ذاهبة لارتداء الشادور.

7

وضع عتيق شوكت كفّه كواقٍ على حاجبيه. الظاهر أن القيظ سيستمر طويلاً. لم تصل الساعة التاسعة صباحاً بعد، وها هي الشمس تضرب بلا شفقة على كل شيء يتحرك كما الحدّاد. أما العربات والحافلات فكانت تتجه نحو سوق المدينة المركزي، الأولى محمّلة بصناديق نصف فارغة أو بالخضر والفواكه الذابلة، أما الثانية فكانت غاصة بالمسافرين المكوّمين الواحد فوق الآخر كما السردين. وهكذا يعرج الناس عبر الأزقة الضيقة، يكشطون بصنادلهم الأرضية المتربة. تتسلّل قطعان ضامرة من النساء، بحجابهن السميك وخطواتهن المتسرنمة، يجاحفن الجدران تحت الحراسة المشدّدة لبعض الذكور المتضايقين. وبعد ذلك، في جميع الأمكنة، في الساحة، في قارعة الطرقات، وسط السيارات وحول المقاهي والمطاعم، يتناثر مئات الأطفال بمناخرهم المخضرّة وحدقات أعينهم المتقدة،

تائهون، يقلقون وأقدامهم لم تثبت بعد في وقوفها، يجدلون في صمت حبل القنّب هذا الذي سيشنقون به، يوماً، وإلى أعلى ما يمكن، نجاة الأمة الأخير. يحسّ عتيق دوماً بضيق عميق حينما يراهم يغزون المدينة، بلا رحمة، أشبه بأسراب الكلاب التي تتوافد ولا يعرف أحد من أين، متنقلة من مزبلة إلى مفرغة، لينتهي بها الأمر إلى احتلال الحاضرة وإيقاف السكان عند حدّهم. ولم تكفِ المدارس القرآنية العديدة التي تنبت مثل الفطريات عند زاوية كل زقاق في استيعاب عددهم الهائل الذي يتكاثر يومياً. وهكذا يكبر خطرهم ولا أحد يبالي في كابول. لقد كان عتيق، طوال حياته، يشكو من أن الله لم يرزقه ذرية، ولكن منذ أن أصبحت الشوارع لا تعرف ماذا تفعل بهم، اعتبر نفسه محظوظاً. ما الفائدة من إثقال الكاهل بذرية لتراها تموت جوعاً أو ينتهي بها الأمر طُعْمة للمدافع وسط ساحة قتال تتعفّر في حرب لا نهائية، تلك الحرب التي يتعرّف على نفسه بداخلها؟

صفق عتيق كرباجه ضد فخذه ومشى باتجاه وسط المدينة، مقتنعاً أن عقره نعمة.

كان نازيح غافياً تحت حماية مظلّته، رقبته ملتوية، كأنه قضى الليلة هنا، عند عتبة بابه، جالساً على الأرض، كما الناسك المتعبد. انتبه إلى وصول عتيق، فتظاهر بالنوم. لقد مرّ عتيق بقربه دون أن يقول كلمة.

وبعد حوالي ثلاثين خطوة، توقّف، فكّر ملياً ثمّ رجع على أعقابه. قلّص نازيح، الذي كان يراقبه بطرف العين، قبضتي يديه وانكمش أكثر في زاويته. وقف عتيق عند رأسه، مشبكاً ذراعيه على صدره، ثمّ قرفص وبدأ يرسم بأصبعه أشكالاً هندسية على التراب. قال معترفاً:

- كنت قذراً معك بالأمس.

مطّ نازيح شفتيه بقوة لينطق على شاكلة كلب مضروب.

- رغم أنني لم أسئ إليك قط.

- أعتذر لك.

- بووه...

- إنني أصرّ على الاعتذار. أسأت التصرف معك، يا نازيح. كنت قذراً وظالماً وبليداً.

- لا تبالغ، كنت مضجراً قليلاً فقط.

- ألوم نفسي على هذا التصرف الأحمق.

- لست مجبراً على ذلك.

- هل تعفو عني؟

- أكيد، أمر طبيعي. ثمّ، بصراحة، كنت أستحق أكثر. كان عليّ أن أفكّر في الأمر قليلاً قبل أن آتي لإزعاجك. كنت هناك في السجن الفارغ كي تجد السكينة وتفكّر في همومك بذهن صافٍ. ونزلت عليك

دون سابق إنذار وأحدثك عن أشياء لا تهمك. الخطأ خطئي. كان عليّ أن لا أزعجك.

- صحيح أنني كنت بحاجة لأن أختلي بنفسي.

- عندئذ، أنا الذي سأطلب منك العفو.

مدّ عتيق يده. أمسكها نازيح بتلهف، وشدّها طويلاً. ودون أن يرخي قبضته، ألقى نظرة دائرية كي يتأكّد من خلو المكان، تنحنح وقال بصوت لا يكاد يُسمَع من كثرة الانفعال:

- هل تعتقد أنه سيمكننا سماع الموسيقى في كابول، يوماً؟

- من يعرف؟

تضاعف شدّ الشيخ وامتدّت رقبته النحيفة ليمدّد شكواه:

- أرغب في سماع أغنية. لا يمكنك أن تقدّر كم أنا راغب في ذلك. أغنية مع الموسيقى وصوت يهزّك من الرأس إلى القدمين. هل تعتقد أنه يمكننا، يوماً أو مساءً، إشعال المذياع والتمتع بسماع تتالي الفرق الموسيقية إلى حدّ الإغماء؟

- الله وحده العليم.

طفقت عينا الشيخ اللتان غمرتهما ضبابية لحظة، تتقدان بلمعان مؤلم بدا كما لو أنه صعد من عمق كيانه. قال:

- إن الموسيقى هي النفث الحقيقي للحياة. نأكل كي لا نموت جوعاً. نغنّي ليدبّ نفَس الحياة في أجسادنا. هل تفهم، يا عتيق؟

- في هذه الآونة، لا أتحكّم في كامل صفاء ذهني.

- أيام كنت طفلاً، غالباً ما يحدث أن لا أجد شيئاً آكله. لم أكن أشعر بخطورة الوضع. يكفيني الجلوس على غصن والنفث في مزماري كي أغطي قرقرة بطني. وحينما أغني، لا تصدقني إذا أردت، كنت أحسّ بنفسي سعيداً.

تبادل الرجلان النظرات. كان وجهاهما متقلّصين كما التشنج العضلي. أخيراً، سحب عتيق يده كي ينهض.

- إلى اللقاء، نازيح.

وافق الشيخ بإيماءة من الرأس. وفي الوقت الذي استعدّ السجّان لمواصلة طريقه، شدّه الشيخ من ذيل سترته:

- هل فعلاً كنت صادقاً بالأمس، يا عتيق؟ هل تعتقد أنني لن أبرح هذا المكان، وأنني سأبقى هنا مغروساً كما الشجرة وأنني لن أشاهد البحر أبداً، ولا الأقاليم البعيدة، ولا أسفل الأفق.

- إنك تطلب مني الكثير.

- أريد أن تصارحني جهراً. أنت لستَ رجلاً منافقاً

ولا تكترث بحساسيات الأشخاص حينما تلفظ بحقائقهم على وجوههم. لستُ خائفاً، وسوف لن ألومك. أريد أن أعرف للمرّة الأخيرة: هل تفكر فعلاً أنني لن أغادر هذه المدينة أبداً؟

- بلى... فوق أكتاف المشيّعين، دون شك.

بعد ذلك، ابتعد مصفقاً كرباجه ضد خصره.

فكّر بأنه قسا على الشيخ مرّة أخرى، كان عليه أن يوهمه بالعكس، أن يترك له باب الأمل مفتوحاً وإن كان حلمه مستحيل التحقيق. لا يفهم ماذا حدث له، لماذا، فجأة، تغلبت اللذة الماكرة في تأجيج ضيق الشيخ المسكين على الباقي. ومع ذلك، أقلقته هذه الرغبة الجارفة في إفساد، بكلمتين، ما يدعو إليه بمائة كلمة كما المصاب بالحكّة، يكشطها إلى حدّ الإدماء ولا يريد التخلص منها... بالأمس، عند رجوعه إلى البيت، وجد مُسرّة نائمة. ودون أن يعثر على تفسير لتصرفه، قام بتقليب كرسي عمداً، وتصفيق صفائح النوافذ ولم يلتحق بسريره إلا بعد أن تلا آيات طويلة بصوت مرتفع. عند الصباح، تفطّن إلى نذالته. لماذا يفكّر الآن أيضاً أنه سيتصرّف بالطريقة نفسها هذا المساء إن وجد زوجته نائمة.

سابقاً، لم يكن عتيق هكذا. صحيح أنه لا يُعرف عنه أنه شخص لطيف، ولكنه ليس شريراً أيضاً. كان فقيراً جداً ليسمح لنفسه ببعض السخاء، ولكنه لم يبالغ

في الامتناع عن العطاء بقصد ظاهر أنه لا ينتظر مقابلاً لفعله. بهذه الطريقة، لا يشترط شيئاً من أحد، إذ أنه لا يشعر بنفسه مجبراً ولا مديناً. في بلد تتنافس فيه المقابر مع الأراضي الشاغرة حول التوسّع، حيث تمدّد المواكب الجنائزية قوافل الشاحنات العسكرية، علّمته الحرب أن لا يرتبط كثيراً بالأشخاص الذين يمكن لنزوة مزاج أن تسلبهم منه. انغلق عتيق عمداً بداخل شرنقته، بعيداً عن الجهود الضائعة. لقد قدّر بأن الحياة قد أذاقته عَلْقَمها إلى حدّ التخمة كي يتعاطف مع شقاء غيره، يرتاب من حساسيته كما من القرع، واختصر أوجاع العالم إلى وجعه الخاص. ورغم ذلك، لم يعد يكتفي في المدّة الأخيرة بتجاهل محيطه. لقد أقسم أنه لن يهتم إلا بهمومه، ومع ذلك ها هو لا يزدري من الاستفادة من شقاء غيره كي يروّض شقاءه الخاص. ودون إدراك منه، نمَت بداخله عدوانية غريبة، قاهرة وغامضة، بدت متوافقة مع مزاجه. إنه لا يريد أن يكون وحيداً ضد العدوان؛ بل أفضل، يبحث عن إقناع نفسه أنه سيتحمّل بسهولة أكثر ثقل مصائبه إن هو تحامل على الآخرين. لقد كان يعي تماماً بالضرر الذي يسلّطه على نازيح، وعوض أن يتعذّب لذلك، فإنه يتلذّذ بتصرفه كما يتلذّذ بنجاح ماهر. فهل هذا ما يسمى بـ"اللذّة الماكرة"؟ غير مهم، أن يليق به الوضع، وإن لم يساعده على تجسيد نجاحه، فقد ينتابه إحساس أنه

لا يفقد في التبادل، كما لو أنه يثأر من شيء لا يتوقف عن التملص منه. ومنذ أن أقعد المرض مُسرّة، انتابه إحساس عميق أنه خُدِع، وأن تضحياته وتنازلاته وصلواته لم تصلح لشيء؛ وأن مصيره لن يتحسّن أبداً، أبداً، أبداً...

ناداه صوت خشن.

- عليك بعرض نفسك على راقٍ.

التفت عتيق. كان مرزا شاه يجلس إلى الطاولة نفسها التي احتلها بالأمس، على شرفة الدكان، منشغلاً بتحريك حبات سبحته دافعاً بعمامته إلى قمة جمجمته وقطّب حاجبيه:

- لستَ على ما يرام، يا عتيق. سبق أن نبَّهتك إلى أنني لا أريد أن أفاجئك تتحدث بمفردك في الشارع. الناس ليسوا عُمياناً. سيعتقدون أنك مجنون وسيطلقون ذريتهم في أعقابك.

قال عتيق مدمدماً:

- لم أبدأ بتمزيق ملابسي بعد.

- بهذه الوتيرة، سوف لن يتأخّر الموعد.

هزّ عتيق كتفيه وواصل طريقه.

أمسك مرزا شاه ذقنه بين أصابعه وهزهز رأسه. راقب السجّان وهو يبتعد هارباً، متأكداً أنه سيراه يستأنف إيماءاته الصامتة قبل أن يلتحق بطرف الزقاق.

غضب عتيق. أحس كأن عيون المدينة كلها تراقبه، وأن مرزا شاه يضطهده. حثّ الخطى كي يبتعد في أسرع وقت ممكن، مقتنعاً أن الرجل الجالس في الشرفة خلفه يراقبه، مستعداً ليلفظه بملاحظات جافية. لقد كان ساخطاً إلى حدّ أنه، عند وصوله إلى زاوية الزقاق، اصطدم بزوج، دافعاً المرأة أوّلاً، ثمّ تعثّر على رفيقها الذي اضطر إلى التشبث بالجدار كي لا يسقط.

التقط عتيق كرباجه، دفع الرجل الذي حاول النهوض وأسرع إلى الاختفاء.

دمدم محسن رمات نافضاً الغبار عنه:

- يا له من رجل فظّ...

أعطت زنيرة ضربات خفيفة على أسفل شادورها. قالت، متسلية بسحنة زوجها:

- لم يعتذر على فظاظته.

- هل أصابك مكروه؟

- باستثناء هلع خفيف، لا شيء.

- حسناً، هذا أفضل.

سوّى الزوج لباسهما، هو بحركة ساخطة، وهي بقهقهة خافتة تحت قناعها. انتبه محسن إلى ضحكة زوجته المخنوقة. غمغم لحظة، ثمّ قهقه بدوره، مرتاحاً

لمزاج زنيرة المرح. فجأة، نزلت ضربة عصا على كتفه.

صرخ رجل من الطالبان جاحظاً عينيه الشاحبتين بداخل وجه لفحته الشمس:

- هل تظنان أنفسكما في السيرك؟

حاول محسن الاحتجاج. دارت العصا في الهواء وأصابت وجهه. ألحّ الشرطي:

- ممنوع الضحك في الشارع. لو بقي لكما مثقال ذرة من الحياء لأسرعتما إلى الالتحاق بمنزلكما وأغلقتما الباب على نفسيكما بالقفل.

ارتعد محسن من الغضب، يده على خدّه. قال شرطي الطالبان ساخراً:

- ما بك؟ أتريد أن تفقأ عينيّ؟ هيّا، أرِني جرأتك يا وجه فتاة...

قالت زنيرة متوسلة، وهي تجرّ زوجها من الذراع:

- هيا بنا.

سوطها الشرطي على الخصر وصرخ:

- لا تلمسيه أنت؛ ألزمي مكانك. ولا تتكلمي بحضور أجنبي.

انتبه مجموعة من حراس الطالبان إلى الشجار واقتربوا، شاهرين الكرباج. لمس أكبرهم لحيته في سخرية وسأل زميله:

- لديك مشاكل؟

– يتصوران نفسيهما في السيرك.

تفرّس الكبير محسن.

– من هذه المرأة؟

– زوجتي.

– إذاً تصرف كرجل. علّمها أن تبقَ جانباً حينما تكلّم شخصاً ثالثاً. أين تذهب ؟

قال محسن كاذباً :

– أرافق زوجتي إلى أهلها.

رمقه الشرطي بتركيز كبير. أحست زنيرة أن ساقيها سينهاران تحتها. استولى عليها هلع مرعب. لقد كانت في قرارة نفسها، تتوسّل زوجها أن لا يفقد رباطة جأشه. قال الشرطي آمراً:

– ستقودها فيما بعد. أما الآن، فيجب عليك الالتحاق بالمسجد هناك، مع جماعة المؤمنين. بعد أقل من ربع ساعة، سيلقى الملا بشير خطبته.

– قلت لك إنني أرافقها...

أوقفه كرباجان. تلقاهما على الكتف، الاثنان معاً وفي الوقت نفسه.

– أقول لك إن الملاّ بشير سيلقي خطبته بعد عشر دقائق... وتحدثني عن مرافقة زوجتك إلى بيت أهلها. ماذا تملك بداخل جمجمتك؟ هل أفهم من هذا أنك

تفضل زيارة عائلية على خطبة أحد أكبر علمائنا الأجلاء؟

بطرف مقرعته، رفع له ذقنه بحيث يشدّ نظره، ثمّ دفعه بتقزّز.

- ستنتظرك زوجتك هنا، جانباً، عند أسفل هذا الجدار. وستقودها عند أهلها فيما بعد.

رفع محسن يديه علامة الاستسلام، ثمّ، وبعد نظرة خاطفة باتجاه زوجته، قصد بناية مصبوغة بالأخضر والأبيض، يتسارع عند بابها حراس آخرون من الطالبان، يوقفون المارين لإرغامهم على حضور خطبة الملا بشير.

8

قال الملاّ بشير من أعلى سَلعته:

- لا ريب في ذلك.

يشقّ إصبعه الشبيه بأصبع الغول الهواء كما السيف.

جذب إليه مخدّته كي يسوّي جلسته، ثم تململ في قَرْقَعة المصطبة التي تقوم مقام المنبر؛ إنه ضخم كالفيل ومرعب كالهامة، ينبثق وجهه الصلب وسط لحية ليفية.

لقد كان يمسح الحضور بعينَين يقظتَين، تتقدان بذكاء حاد، مُخوّف.

- لا ريب في ذلك، أيها المؤمنون. إنها حقيقة مثل الشمس التي تطلع من الشرق. تأمّلت الجبال وسألت إشارات السماء، ومياه الأنهار والبحار، وغصون الأشجار و ثُلَم الطرقات؛ أكّدت جميعها أن الساعة المنتظرة قد آن أوانها. ما عليكم إلا مدّ آذانكم لتسمعوا أن كل إشارة فوق هذه الأرض، كل مخلوق، كل هدير، يقول لكم إنَّ لحظة المجد في متناول أيديكم، وإنَّ الإمام المهدي يوجد بيننا، وإنَّ طرقنا

منوّرة. إن أولئك الذين يرتابون لحظة في قدوم الساعة ليسوا منا. فلقد سكن الشيطان قلوبهم، وستجد جهنّم في أجسادهم حطباً لا يفنى. وسيأتيكم ندمهم من قاع جهنّم خالدين فيها، لأنهم لم ينتهزوا الفرصة التي نمنحها لهم على أطباق من فضة: حظ الالتحاق بصفوفنا، والاحتماء نهائياً تحت أجنحة المولى.

طرق إصبعه بخشونة على الأرضية. من جديد، أحرجت نظرته النارية الحاضرين المشلولين في صمت مذهل:

- ويمكن لهؤلاء أن يتوسلوا إلينا لملايين السنين، سنبقى صمّاً أمام تضرعاتهم كما هم اليوم أمام نداء إنقاذهم.

استغل محسن رمات حدوث هياج في الصفوف الأولى كي يلقي نظرة من فوق كتفه. رأى زنيرة تنتظره، جالسة على درج خراب، مقابل المسجد. اقترب منها شرطي، يحمل البندقية على الكتف، فوقفت وأشارت إلى المسجد بيد راجفة. نظر الشرطي باتجاه المسجد، وافق بحركة رأس ثمّ ابتعد.

نقر الملّا بشير على الأرضية كي يشترط انتباهاً متواصلاً:

- لا ريب في ذلك الآن. دوى القول الحق وانتشر في ربوع المعمورة حيث تستجمع الشعوب الإسلامية قواها وقناعاتها الأكثر رسوخاً. قريباً، لن يسود على وجه الأرض إلا لغة واحدة وقانون واحد ونظام واحد:

إنه هذا... صرخ شاهراً نسخة من القرآن. انهار الغرب، ولم يعد موجوداً. فشل نموذجه الذي اقترحه للسذّج. ما هو هذا النموذج؟ ماذا يعني بالضبط بألفاظ مثل التحرّر والحداثة؟ إنها المجتمعات اللاأخلاقية التي أنشأها، حيث يسود فيها الربا، واختفت منها قيم تأنيب الضمير والورع والصدقة، قيمها الوحيدة هي القيم المالية حيث يتحوّل الأغنياء إلى طغاة والعمال إلى عبيد، استبدلت العائلة بالمؤسسة كي تعزل الأفراد ليسهل ترويضهم ثم طردهم بلا أدنى محاكمة ولا حقوق؛ إنها مجتمعات حوّلت المرأة إلى متعة مباحة للجميع، كما أباحت للرجال أن يتزوجوا بينهم والعياذ بالله، وتُعرَض فيها الأجساد للبيع على الملأ دون أن تثير سخطاً ولا اشمئزازاً، مجتمعات حَوَّشت أجيالاً كاملة في حياة بدائية قوامها التهميش والإفقار؟ هذا هو النموذج الذي صنع مجد الغرب ونجاحه؟ لا، أيها المؤمنون، لا نشيّد القصور على الأخاسيف. لقد انتهى الغرب، أما انحطاطه فلاريب فيه حيث تخنق عفونته طبق الأوزون. إنه عالم بهتان وكذب. إن ما يبدو لكم تقدّماً ونجاحاً ليس إلا خداعاً، شبحاً قميئاً منهاراً على خراب هشاشته. إن هذا الغرب أكذوبة، هرْجة ضخمة بصدد التفكيك والتشتيت. إن تقدّمه المزيف ليس إلا هروباً إلى الأمام، وعملقته الظاهرة مسخرة. إن حماسه يفضح هلعه. إنه في ضيق شديد، وقع في الفخّ، وهو يتصرّف كالجرذ. لقد فقَد روحه لأنه فقَد إيمانه، وسوف لن

نساعده على العثور على هذا ولا على ذاك. إنه يعتقد أن اقتصاده قادر على حمايته؛ ويظن أنه سيبهرنا بتكنولوجيته المتطورة، وأنه سيوقف صلواتنا بأقماره الصناعية؛ يظن أنه سيخيفنا بحاملات الطائرات، وجيوشه المهزوزة... ونسي أنه لن يخيف أبداً أولئك الذين اختاروا الموت من أجل إعلاء كلمة الله؛ وإذا كانت الرادارات لا تلتقط ذبذبات طائراتهم الخفية، فإن لا شيء يُخفى عن عيون الله.

سقطت قبضته بغيظ:

- ومن سيتجرأ على مواجهة غضب الله؟

قلبت ابتسامة نهمة شفتيه. مسح بأصابعه الزبد الذي تراكم في زاويتي فمه. ببطء، أشار برأسه أن لا، ثمّ عاد إصبعه إلى نقر الأرضية كما لو أنه أراد ثقبها.

- أيها المؤمنون، نحن جنود الله. النصر ديدننا، والجنّة خيمتنا. لا يكاد أحدكم يلفظ أنفاسه بعد إصابته بجروح، إلا ويندفع سرب من حور العين، جميلات مثل ألف بدر، لاستقباله. ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. أمّا قتلاهم، فلا يغادرون قسوة الحياة الدنيا إلا ليرموا في قاع جهنم، خالدين فيها. وستتعفّن جثثهم، كما الجيفة، في ساحة الوغى وفي ذاكرة الأحياء. ولا يحظون لا برحمة الله ولا بشفقتنا. ولا أحد يمنعنا من تطهير أرض المؤمنين، كي يرتفع صوت المآذن المنتصر من

جاكرتا إلى أريحة، من داكار إلى مكسيكو، من الخرطوم إلى صاوو باولو ومن تونس إلى شيكاغو...

انفجر صاحب الملاّ: - الله أكبر...

اهتزّت القاعة: - الله أكبر.

ارتجفت زُنَيرة حينما ارتفع اللغط داخل المسجد. ظنّت أن الخطبة قد انتهت، فلمّت أذيال شادورها وهي تترقّب خروج المصلين. ولكن لا شبح لاح من المسجد. بالعكس تماماً، لا يزال حراس الطالبان يوقفون المارين ويوجّهونهم، بضربات السوط، نحو البناية المصبوغة بالأخضر والأبيض. من جديد، ارتفع صوت الزعيم الروحي، أكثر صخباً، كأنما تحرّضه أقواله الخاصة. أحياناً، يرنّ الصوت بقوة تُذهل حراس الطالبان بحيث يغفلون عن مراقبة المتسكعين. يتفاجأ الأطفال أنفسهم، بأسمالهم الرثة ونظراتهم الشاردة، باستراق السمع إلى الخطبة قبل أن يندفعوا راكضين صائحين باتجاه الأزقة الغاصة بالناس.

الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، ولا شيء يصدّ الشمس من الاندفاع. الجوّ معفّر بالغبار. تختنق زُنيرة المحنطّة بداخل شادورها. يلوي الغضب بطنها ويسدّ حلقها. اجتاحتها رغبة جنونية في رفع كاغولتها بحثاً عن نفحة محتملة من هواء منعش، وضاعفت من حالة عصبيتها. ولكنها لم تجرؤ حتى على مسح وجهها المتصبّب عرقاً بطرف من شادورها. لقد مكثت منهارة على الدرج الخرب، تتصبّب عرقاً تحت الحرّ وتسمع

لهاثها يتسارع والدم يخفق في صدغيها، كما المجنونة المقيّدة بداخل قميصها الجبري. فجأة، لامت نفسها على وجودها في هذا المكان، جالسة على عتبة خراب، أشبه بحزمة منسية، جاذبة تارة نظرة المارة الحائرة، وتارة أخرى نظرة الطالبان المزدرية. ينتابها إحساس أنها شيء مشبوه معرّض لكل أنواع التساؤلات، وهذا يعذّبها. غمرها الخجل. تقطّع أوصالَها رغبة دفينة في الهرب والعودة فوراً إلى بيتها وصفق الباب خلفها كي لا تخرج ثانية أبداً. لماذا قبلت متابعة زوجها؟ ماذا كانت تتمنى أن تجده في أزقة كابول، سوى البؤس والإذلال؟ كيف قبلت ارتداء هذا الغطاء البشع الذي يجهز عليها، هذه الخيمة المتنقلة التي تمثل خلْعها وزنزانتها معاً، بذاك القناع المسيّج المقطّع في وجهها كما المشربية المتعددة الأشكال والألوان، وتلك القفازات التي تمنعها من التعرف على الأشياء باللمس، وثقل التعسف؟ ومع ذلك، هذا ما كانت تخشاه بالذات. كانت تعرف أن تهوّرها سيعرّضها إلى ما تمقته أكثر من غيره، إلى ما ترفضه حتى في نومها: الانحطاط. إنه جرح لا دواء له، عاهة غير قابلة للترويض، صدمة لا يخفف من وقعها العلاج الطبي ولا إعادة التربية، ولا يمكن للمصاب بها التعوّد عليها دون أن يغرق في النفور من نفسه. وهذا النفور، تدركه زُنيرة جلياً؛ يختمر بداخلها، يُلهِب أحشاءها ويُهدّد بتقديمها قرباناً للآلهة الجدد. تشعر به يكبر في أعماق

كيانها، شبيهاً بالمحرقة. ربّما لهذا السبب، تسيل عرقاً وتختنق تحت شادورها، ويبدو لها أن حلقها الجاف يدفق في حلقومها رائحة تحريق الأموات. يضغط على صدرها سعار لا يقهَر، يرضّ قلبها وينفخ شرايين رقبتها. تَشوَّشت نظرتها: إنها على شفى حفرة من الانفجار بالبكاء. وبقوة خارقة، بدأت بتقليص قبضتيها لكبح الارتعاش الذي بدأ ينتابهما، استقامت في جلستها واعتنت بتنظيم تنفسها. ورويداً رويداً، طردت غضبها، درجة بعد درجة، وأفرغت ذهنها، إذ يجب عليها أن تتحكم في أعصابها، أن تتجلّد إلى غاية عودة محسن. حماقة أو احتجاج، قد يعرّضانها لتعسف حراس الطالبان.

لاحظ محسن رمات أن الملّا بشير ملهم جداً. انساق خلف نقده اللاذع، ولا يعلّق تحليقاته إلا ليدق على الأرضية أو يتناول قنينة الماء إلى شفتيه المتوهجتين. إنه يخطب منذ ساعتين، محتداً وملوّحاً، رضابه أكثر بياضاً من عينيه. يذكّر نفَسه الشبيه بنفَس الجاموس، المرتجّ بداخل القاعة، بهزّة أرضية. وفي الصفوف الأولى، لم ينتبه المؤمنون المعمّمون إلى القيظ. فلقد أذهلهم إطناب زعيمهم الروحي بأتم معنى الكلمة، الأفواه منفتحة على مصراعيها كي لا يفوتهم شيء من لجّ الكلمات المُروية المتدفقة عليهم كالشلال. أما في الصفوف الخلفية، فانقسمت الآراء؛ يوجد من

يتعلّم ومن يشعر بالضجر. لم يسر الكثير منهم بوجوده هنا عوض التفرّغ إلى انشغالاتهم الخاصة حيث لم يكف هؤلاء من التحرك وسحق الأصابع. غفا شيخ، هزّه حارس بهراوته. استيقظ المسكين هلعاً، وحرّك جفونه كما لو أنه لم يتعرّف على المكان، مسح وجهه براحة يده، ثمّ، وبعد تثاءب، ارتخت رقبته الشبيهة برقبة طير، فعاد إلى النوم. أما محسن، فقد ضاع منه خيط الخطبة منذ فترة. لم تعد أقوال الملّا تصبه. لقد كان حائراً، ولم يتوقف عن الالتفات نحو زنيرة، هناك في الجهة الأخرى من القارعة، جامدة على الدرج الخرب. هو يعرف أنها تتعذّب تحت خيمتها، من وطأة الشمس ومن مجرد البقاء هناك، أشبه بتشوّه وسط المتسكعين، هي التي يرعبها عرض نفسها للفرجة. كان ينظر إليها، آملا أن تراه وسط هذه اللّمة المتشكّلة من كل من هبّ ودبّ من الأشخاص بوجوههم الوقورة وصمتهم السخيف، ربّما فهمت كم هو نادم على ما آلت إليه مجرد نزهة بسيطة في مدينة تتحرّك فيها الأشياء بتهيّج دون أن تتقدّم حقيقة. كذلك يوحي له إحساس داخلي أن زنيرة غاضبة عليه أشدّ الغضب حيث انكمشت صلابتها كما النمرة المجروحة المجبرة على الهجوم...

صفّر كرباج على مستوى صدغه. قال حارس الطالبان مذكّراً:

- الخُطبة أمامك...

وافق محسن وأدار ظهره لزوجته. بكآبة قاتلة.

انتهت الخطبة، فقام مناصرو الصفوف الأولى في حركة حماسية وتدفقوا على زعيمهم الروحي لتقبيل يده أو طرف من عمامته. صبر محسن إلى أن أذن حراس الطالبان للمصلين بمغادرة المسجد. أخيراً، حينما تمكن من انتشال نفسه من الازدحام، كانت زنيرة قد صرعتها الشمس. بدا لها أن العالم قد أظلم، وأن الأصوات المجاورة تدور بمهل، وهكذا وجدت صعوبة كي تقف على قدميها. سألها محسن:

- هل تشعرين بضرّ ما؟

وجدت السؤال سخيفاً إلى حدّ أنها لم تكلف نفسها عناء الردّ عليه. قالت:

- أريد الرجوع إلى البيت.

أجهدت نفسها لاسترجاع قواها، متكئة على إطار باب، ثمّ، بلا أدنى كلمة، طفقت تمشي مترنّحة، بصرها زائغ، ورأسها يغلي. حاوَل محسن أن يسندها، ولكنها دفعته بقسوة وصرخت بصوت مخدوش:

- لا تلمسني.

تلقى محسن صرخة زوجته بالوجع نفسه الذي أسداه إياه، ساعتين قبل ذلك، الكرباجان اللذان سقطا على كتفه في آن واحد.

9

أعطى السائق ضربة مقود عنيفة كي يتجنب الاصطدام بصخرة كبيرة وسط الطريق، ومال كيفما اتفق باتجاه حافة القارعة إذ لم تتمكن الفرامل البالية من تقليل سرعة الـ4×4 الضخمة، التي وثبت بداخل حفرة، في صرير أصمّ للمخمدات، قبل أن تتوقف بأعجوبة على شفى الساقية.

اكتفى قاسم عبد الجبار بهزّ رأسه، دون أن يفقد رصانته.

– هل تريد أن تقتلنا أم ماذا؟

ابتلع السائق ريقه عندما لاحظ أن إحدى العجلات لا تبعد عن الجرف إلا بعشر سنتيمترات. جفّف عرقه بطرف عمامته، تمتم بتعزيمة، وباشر الرجوع القهقرى كي يبعد السيارة من الخطر.

– من أين سقطت هذه الصخرة الملعونة؟

قال قاسم ساخراً:

- ربّما هي نيزك.

بحث السائق حوله عن مكان من شأنه أن يشرح له كيف تمكنت الصخرة الكبيرة من التدحرج إلى غاية الطريق. وعندما رفع عينيه باتجاه أقرب قمّة، تفاجأ بوجود شيخ يتسلّق جوانب الهضبة:

- أليس هذا نازيح، هناك؟

تابع قاسم بصر السائق.

- لا أظن.

قطّب السائق جفونه كي يركز بصره على الخرقة البشرية التي تتسلق الهضبة في خطر ملحوظ.

- إذا لم يكن نازيح، أكيد أنه أخوه التوأم.

- لا تشغل بالك به، بل اعمَل لإيصالي إلى البيت سالماً.

وافق السائق بهزّ الرأس، ثمّ دفع بالـ4×4 عبر الطريق الوعر في سرعة مذهلة، كأن شيئاً لم يكن. وقبل أن يختفي عند دورة تلّة، ألقى آخر نظرة في المرآة الارتدادية، متأكداً أن الشيخ المذكور هو حقاً ذاك الساذج الذي يأتي من حين لآخر ليحوم حول السجن الذي اتخذه عتيق شوكت مسكناً لوساوسه. انهار نازيح في ذروة القمّة، متعباً، وقد جفّ حلقه وتقطّعت ربلتاه. حاول استرجاع تنفسه، وهو ملقى على قوائمه الأربع، ثمّ تمدّد على الظهر واستسلم للدوخة. فلقد ألهمته السماء التي كانت في متناول يده بإحساس نادر

من الخفة؛ بدا كما لو أنه يتفتح مثل نَغَفَة، يتسلّل، نفثة وراء الأخرى، بين زَرَدات جسده المترهلة. بقي على تلك الحالة، ممدوداً فوق الأرض، الصدر لاهث، والذراعان على شكل صليب. حينما انتظم إيقاع تنفسه، انتصب جالساً، ومدّ المَطَرة إلى فمه. الآن وقد انتصر على الجبل، لا شيء يمنعه من أن يتبارى مع الأفق. إنه يشعر بنفسه قادراً على المشي إلى غاية طرف الدنيا. لَوَّح قبضته باتجاه السماء، مفتخراً بصنيعه الذي بدا مستحيلاً لرجل في مثل سنّه، وألقى نظرة ناقمة فوق كابول، هذه العجوز المستحضرة للموتى، المحصورة بإصرار داخل همومها، تقبع هنا، عند قدميه، مخلّعة، شعثاء، منبطحة، فكاها مكسران من فرط نهش التراب. لقد كانت أسطورتها في عهد ما تنافس عظمة سَمَرْقنْد أو بغداد، حيث يحلم فيها السلاطين، مباشرة بعد اعتلائهم العرش، بإمبراطوريات أوسع من السماء... انقضى ذاك العهد، فكّر نازيح بغيظ. سوف لن يُضبط مرة أخرى يحوم حول الذكرى. ذلك أن كابول مرعوبة من الذكرى. لقد نفّذت الإعدام في تاريخها على الساحة العمومية، وضحّت بأسماء شوارعها، قرابين في محارق مرعبة، وسحقت نصبها التذكارية بالمتفجرات وألغت وعودها التي أمضاها مؤسّسوها بدماء الأعداء. اليوم، أعداء كابول هم أبناؤها. تنكّروا لأسلافهم وشوّهوا نفوسهم كي لا

يشبهوا أحداً، وبالأخص هذه الكائنات الخاضعة التي تهيم على وجوهها كما الأشباح، عبر ازدراء الطالبان ولعنة زعمائهم الروحيين.

على بعد رمي حجر، يتربّع وَرَل على صخر، وإلى جانبه ذيله الطويل كما السيف. بالتأكيد، إن الهدنة عند سباع الطير سوء تفاهم خطير. في بلاد الأفغان، سواء كنّا ننتمي إلى القبائل أو إلى البراري، سواء كنا بدواً من الرّحّل أو حراس معابد، لا يحلو العيش إلا بقرب سلاح. هكذا يكون الورَل الملك حارساً؛ يتشمّم الهواء مترقباً الكمائن. ومع ذلك، لم يعد نازيح يرغب في سماع حديث عن المعركة والحصار، والسيف أو البندقية؛ لم يعد يرغب في الوثوق بنظرة الأطفال الانتقامية. لقد قرّر أن يدير ظهره للغط الأسلحة، ويختلي بنفسه في الشواطئ المتوحشة ورؤية البحر عن قرب. كذلك رغِب في الذهاب إلى ذلك البلد الذي استقاه من أوهامه، وشيّده بتنهداته وصلواته، وأغلى أمانيه؛ بلد لا تموت فيه الأشجار من الضجر، حيث تسافر فيه الدروب كما الطيور، حيث لا أحد يأتي ليشكّ في تصميمه على ضرب الأمصار القارة التي لن يعود منها أبداً. التقط سبعة أحجار وبنظرة ساخرة، ولمدّة طويلة، تأمّل المدينة حيث لا معلم يثير إحساسه. فجأة، خفّ الضغط عن ذراعيه، ولفظ قذائفه بعيداً،

كي يغالب اللعنة اللاصقة به، ويرجم الشيطان الرابض في طريقه.

تمايلت الـ4×4 بجنون على الدرب الوعر. لم يعقّل الانحراف الذي وقع قبل قليل من تهوّر السائق. تشبّث قاسم عبد الجبار بباب المركبة صابراً على الضرر المحدّق به. ومنذ أن غادرا قرية القبيلة، لم يتصرّف السائق الشاب إلا حسب هواه. لقد تعلّم القيادة بلا مدرّب، على غرار أغلبية المقاتلين، لذلك لا يدرك الخراب الذي يحدثه للسيارة. إنه يقيس خضوع المركبة على حسب السرعة التي يستقيها من أحشائها، مثلما يحدث مع الأحصنة تقريباً. تشبّث قاسم بمقعده وحاول أن يتجاهل رفيقه، مقتنعاً أن لا برهان يستطيع التغلب على عناده. فكّر في القبيلة التي جرّدتها الحرب من كل شيء، في الأرامل واليتامى الذين تجاوز عددهم حدود المقبول في مثل هذه الحروب، في قطعان الماشية التي كاد الجفاف يجهز عليها تماماً، في القرية المترهلة حيث لم يرَ ضرورة لإطالة إقامته فيها. فلو كان الأمر بيده، لم يكن ليضع فيها قدميه أبداً. ولكن توفيت أمّه. دفنت بالأمس. وصل متأخراً عن حضور جنازتها، فوقف لحظة أمام قبرها يترحّم على روحها، مكتفياً بدقيقة صمت وقراءة الفاتحة. ثمّ أولج حزمة أوراق

نقدية في جيب صدار أبيه وأمر السائق أن يرجعه إلى كابول.

قال السائق كما لو أنه يقرأ في أفكاره:

- كان بإمكاننا البقاء إلى غاية الغد.

- لماذا؟

- كي نستريح قليلاً. لم نتناول حتى وجبة أكل.

- ليس لدينا ما نفعله هناك.

- كنت عند أهلك.

- وما الفرْق؟

- لا أعرف بالضبط. ولكنني لو كنت مكانك، لأخذت كل وقتي. كم مرّ من الوقت لم تزر القرية؟ أسابيع، شهور أم سنوات.

- لا أشعر بالراحة في القرية.

هزّ السائق رأسه بالموافقة، دون اقتناع. كان يراقب راكبه بطرف عين، واجداً له موقفاً غريباً لشخص فقد أمّه توّاً. انتظر مرور دورة كي يعيد الكرّة.

- قال لي قريب لك إن والدتك كانت قديسة.

- إنها امرأة فاضلة حقاً.

- حتماً ستنقُصك.

- ربّما، ولكنني لا أرى كيف. كانت صمّاءً بكماء. في حقيقة الأمر، لا أحتفظ منها في ذاكرتي إلا بالشيء القليل. زد على ذلك، إنني غادرت القرية في سنّ

مبكرة. في الثانية عشر من عمري، كنت أركض من حدود إلى أخرى وراء إناء الأرز. ولا أعود إلى مسقط رأسي إلا نادراً. رمضان واحد من ثلاثة. لهذا، لم أتعرّف على المرحومة كما ينبغي. بالنسبة لي، كانت المرأة التي أخرجتني إلى الحياة وكفى. كنت السادس في قائمة ذرية وصل عددها إلى الأربعة عشر، وأقلهم قيمة. كنت عابساً، عسير المعاشرة، القبضة أخف من الصراخ، ويضجرني الاكتظاظ في البيت الحقير والغياب شبه الكلي للطموح. من جهة أخرى، كانت المرحومة شديدة التكتم. وكان الوالد يتشدّق دوماً بأنه تزوّجها كي لا تناقش أوامره، هذا التصريح الذي يغرقه في ضحك صاخب. كان الوالد مزّاحاً حقيراً. ضرباته قاسية، ولكنه ليس متطلباً، ولا سيئاً في العموم. لم توجد المبررات التي تجعله كذلك. لقد كانت المشاجرات الزوجية النادرة تدور في صمت، فتسليه أكثر مما تجعله يفقد أعصابه...

ملأت ذكرياته عينيه بلمعان بعيد. مطّ شفتيه وسكت. لا يظهر عليه الحزن؛ بل خيبة عميقة كما لو أن الذكريات تزعجه. بعد صمت طويل، تنحنح وأضاف وهو يلتفت بغتة إلى يساره:

– ربما كانت قديسة فعلاً. على كل حال، لمَ لا؟ لم تسمع الرذائل ولم تتفوّه بها.

– كانت سعيدة إذاً.

- لا، ليس إلى هذا الحدّ. كانت شخصاً هادئاً، بلا مشاكل ولا عداوات. كانت بالنسبة لي تجسّد ابتسامتها، هي نفسها دوماً، متسعة حينما تكون راضية، ضيّقة حينما يغيظها أحد. إذا كنت قد غادرت البيت العائلي مبكراً، فأكيد أنه لهذا السبب. بدا لي معها أنني أخاطب جداراً.

أمال السائق رأسه باتجاه الباب كي يبصق. حلّق رضابه وسط الغبار قبل أن يتراجع ليسقط على لحيته. مسحه بظهر يده وقال، بنبرة ابتهاج غريبة:

- لم أعرف والدتي. ماتت وهي تخرجني إلى الحياة. كان عُمْرها أربع عشرة سنة. كان الوالد قريباً منها، يرعى قطيع غنمه. لم يكد يستوفي سنّ البلوغ، ولم يتخلّص من تصرّفه الصبياني بعد. وعندما بدأت أمّي تتأوّه، لم يصبه الهلع. وعوض البحث عن المساعدة عند الجيران، أراد أن يتدبّر أمره بمفرده. كما الراشد. ساءت الأمور بسرعة. أصرّ على العناد. هكذا وُلدت وأبي يجهل كيف بقيت على قيد الحياة؛ بل أسوأ، لم يفهم لماذا لفظت أمي أنفاسها بين يديه. لا يزال الأمر يشغل باله، بعد مرور سنوات عديدة وأربع زيجات. لقد تعذّبت أمي المسكينة كثيراً قبل أن ترتفع روحها إلى بارئها. لم أعرفها ومع ذلك توجد دائماً هنا إلى جانبي. أؤكّد لك أنه أحياناً أحسّ بنفَسها على وجهي. إنه زواجي الثالث في أقل من سنة.

- هل هذا بسببها؟

- لا، كانت زوجتاي الأوليَان غير خاضعتَين. لم تكونا حيويتَين وتطرحان أسئلة كثيرة.

لم يرَ قاسم العلاقة. ألقى رقبته على رأس المقعد وحدّق في مصباح السقف. عند دورة منعطف، ظهرت كابول... منكمشة وسط شوارعها الممزّقة، أشبه بهَرْجة مأساوية، مع سجن بول-الشرقي الكئيب، القابع جانباً، كما الكاسر الذي ينتظر حصته من الصيد. تلألأت عينا قاسم بلمعان فريد. فإذا لم يكن يتخلف عن أي فرصة لمرافقة البؤساء إلى غاية المشنقة، فلكي يجلب أنظار الملالي إليه تدقيقاً. كان مقاتلا ماهرا. وشهرته كحارس من حراس الميليشيا محمودة. سينتهي به الأمر يوماً، من فرط المثابرة والإخلاص، إلى إقناع أصحاب القرار على تعيينه مديراً لهذه القلعة، وهي أكبر مؤسسة عقابية في البلد. هكذا، يستطيع الارتقاء إلى مصاف الأعيان، وإقامة العلاقات والانطلاق في الأعمال المربحة. حينذاك فقط، سيتلذّذ براحة المقاتل.

- ستكون في الجنّة الآن؟

قال قاسم بارتباك: - من؟

- أمّك.

تفرّس قاسم السائق الذي لا يبدو أنه يحافظ على صفاء ذهنه. ابتسم هذا الأخير وهو يناور بفظاظة وسط نسيج من الحفر. وفي تلك اللحظة، أدار المنعطف

ظهره للمدينة، واختفت قلعة بول-الشرقي خلف مَحْجَرة صلصال رملي.

في الأسفل، في عمق التلعة التي تغرق في مياه السراب المضللة، تصعد زمرة من الجمال عبر المنحدر. أسفل من ذلك، وقف مُحسن في قلب المقبرة، يتأمّل الجبل الذي يعبر جنبه لمعان الـ4×4 الضخمة. لقد كان كل صباح، يأتي هنا ليتأمّل القمم الصامتة، دون أن يجرؤ على تسلقها. ومنذ أن انزوت زنيرة خلف صمت مرهق، لم يعد يطيق الاختلاط. فبمجرّد الخروج من بيته، يسرع للالتحاق بالمقبرة القديمة فيعزل نفسه هكذا مدّة ساعات، بعيداً عن الأسواق الملوّثة بأعوان البيع بالمزاد وحراس الميليشيا المتهوّرين. ومع ذلك، يعرف بأنه لن يجني الشيء الكثير من اعتكافه. لا يوجد ما يسرّ النظر، ولا ما يثير الأمل، وحده الخراب يمتد إلى ما لا نهاية، ينافسه الجدب. كما لو أن الأرض لا تتجرّد إلا لتزيد البشر المحاصرين بين الصخور والقيظ هلعاً واكتئاباً. ولا تعِد شرائط الخضرة النادرة التي تظهر باحتشام هنا وهناك بأي تفتح؛ تتفتت أعشابها المحروقة عند أدنى ارتعاش. تذبل الأنهار في مجاريها المنهكة، كما الغيلان العملاقة المجففة، التي ليس لها ما تهديه لآلهة الرعن إلا قربان أحشائها المتحجرة. عمّا جاء يبحث وسط

هذه المقابر القميئة، عند أسفل هذه الجبال الخرساء؟...

باشرت مركبة الـ4×4 الضخمة طريقها باتجاه المقبرة، وفي أعقابها غيمة غبار مدهشة. ألقى قاسم نظرة على الرجل الشاب الخائر القوى، التائه وسط الأموات. إنه الشخص نفسه الذي لمحه هذا الصباح عندما كان متوجهاً نحو قرية مسقط رأسه. حدجه بعينيه لحظة متسائلاً عمّا أجبره على البقاء يوماً كاملاً في مقبرة فارغة وتحت شمس حارقة.

ارتخى السائق ورفع قدمه من فوق دواسة السرعة، وهو يسلك الأزقة الأولى للمدينة. إن رؤية عناقيد الشيوخ المكوّمين تحت ظل الجدران الهشة وأسراب الأطفال أعادت له حيويته. إنه مسرور برجوعه إلى منزله. اعترف قائلاً وهو يحيّي بيده أحد معارفه وسط الحشد:

– يا لها من رحلة مضنية... قضينا الساعات الطوال نهلك عمودنا الفقري على الحفر ونبتلع كل أنواع القاذورات.

ردّ قاسم مغمغماً: – كف عن النواح.

قال السائق معانداً، ومُكشِّراً بسخرية:

– عندما أطفئ المحرك، ليس قبل. ماذا نفعل؟ أحطّك عند دارك؟

- ليس الآن. أنا بحاجة إلى تغيير أفكاري. وبما أنك لم تكف عن إزعاج أذنيّ بصومك المجبَر، ما رأيك لو نذهب عند خورسان نقضم شرائح لحم مشوي؟ الأكل على حسابي.

- أحذرك سلفاً، شهيتي تفوق شهية أشعب.

- هذا لا يخيفني.

- إنك أمير سخي، يا رئيسي. بفضلك، سآكل إلى حدّ التخمة.

يقع دكان شواء خورسان عند زاوية ساحة خربة، مقابل موقف حافلات حيث يتبارى دخان المشواة الفحمية مع الزوابع التي تحدثها السيارات عند مرورها حول نفحات الهواء النادرة الراكدة في الساحة. يحتل بعض الزبائن، ومن ضمنهم عتيق السجّان، الطاولات البالية التي تتراصف في ضيق شديد تحت قبة من الخيزران، غير مبالين بالشمس ولا بأسراب الذباب، ولا يتحركون حتى لدفع الأطفال المتضورين جوعا، والذين تهيجهم رائحة الشواء. لقد كان خورسان يؤجّج الجمر بمروحة، بطنه على ركبتيه ولحيته إلى غاية السُرّة. باليد الأخرى، يقلّب شرائح اللحم على النار ويتلمّظ عندما يلاحظ أن اللحم طازج بما فيه الكفاية. لم يتخلَّ عن تركيزه عندما توقفت مركبة الـ4×4 أمامه. فاكتفى فقط بلوح مروحته باتجاه الغبار الذي انتشر حول المشواة، دون أن تفارق عيناه أضلع الخروف

المشخشخة. لقد أظهر له قاسم أربع أصابع وهو يهم بالجلوس على مقعد منخور؛ فسجَّل خورسان الطلب بحركة من الرأس وواصل أداء طقوسه باهتمام ملحوظ.

تفحّص عتيق ساعته. كان قلقه واضحاً للعيان، يبدو أن وصول قاسم عبد الجبار قد ضاعف من عصبيته. ماذا سيقول وهو يفاجئه هنا، بداخل دكان شواء لا يبعد عن منزله إلا بخطوتين؟ أدخل رقبته وسط كتفيه وأخفى وجهه خلف يده إلى أن أتاه صبيّ بشطيرة ضخمة ملفوفة في ورق التغليف. فأولجه عتيق في كيس بلاستيكي، وحطَّ أوراقاً نقدية على الطاولة وانصرف بلا استئذان. وفي اللحظة التي تصوّر أنه قد نجا، لقفته يد قاسم:

- هل تهرب مني، يا عتيق؟

تظاهر السجّان بالمفاجأة:

- آه، قاسم، متى عدت؟

- لماذا تتملّص كسارق الدجاج؟ هل تخفي أشياء تلومني عليها؟

- لا أفهم قصدك؟

هزهز قاسم رأسه، خائباً:

- هل تريد الصراحة، يا عتيق؟ إن ما تفعله ليس جيداً. لا، أرجوك، لا داعي للبحث عن الأعذار. ليس ضرورياً، صدّقني. لست هنا لأوبّخك على شيء. أريد فقط أن أقول لك إنني أجدك متغيراً جداً هذه الأيام

الأخيرة، وهذا لا يرضيني. من المفروض أن الأمر لا يعنيني، ومع ذلك، لم أتمكن من صرف النظر. ربما بسبب السنوات الطويلة التي قضيناها معاً، مع المزاج الرائق في بعض الأحيان، ولكننا غالباً ما كنا ملفوفين في حبائل صروف الدهر التي أعجزتنا قبل الوقت. لا أريد أن أتدخل فيما لا يعنيني، ومع ذلك لا شيء يمنعني من تنبيهك بأنك إن أغلقت على نفسك طويلاً في وحل همومك، سيأتي يوم لا تستطيع الخروج منه.

- لم تلهب النار بعد. كل ما في الأمر أنني أشعر ببعض الاكتئاب أحياناً.

لم يصدّقه قاسم ولم يخف عنه ذلك أيضاً. مال إليه:

- هل أنت بحاجة إلى نقود؟

- لا أعرف كيفية استهلاكها.

حكّ الميليشي جبهته، مفكّراً. اقترح:

- لماذا لا تأتي هذا المساء، تلتحق بنا عند حاج بَلْوان؟ سوف لن تجد إلا الأصدقاء. نشرب الشاي، نثرثر، نتحدث عن الجيش وعن المناوشات العسكرية، ونسخر من شقاء الغير. سيليق بك الوضع، صدّقني. سنكون بين أصدقاء، في جوّ حميمي. إذا كانت لديك مشاريع، سنناقشها معاً بقصد العثور على مشاركين أو حتى مموّلين، ليبدأ العمل جاداً في الساعات الموالية. إن إقامة مؤسّسة ليس بالمعجزة. قليل من الخيال، مظهر

من الحوافز، وسنضع القاطرة في السكّة. إذا كان ليس لديك المال، سنقدّم لك ما يكفي، وسيكون ديناً على عاتقك، ترجعه بالتقسيط المريح.

قال عتيق بنبرة يأس:

- ليست مسألة نقود. إنه الشعاع الذي لا يبهرني.

- كما أنه لا يضيئك، على حسب ما أرى.

- الظلام لا يزعجني.

- هذه النقطة، ينبغي عليك أن تُثبِت صحتها. من جهتي، أريد فقط أن أفهمك أنه ليس عيباً لأي شخص أن يقصد صديقاً، من حين لآخر، حينما يحسّ بضيق ينغّص عليه أيامه.

- مرزا شاه هو الذي بعثك إليّ ؟

- أرأيت؟ إنك مخطئ على طول الخط. لست بحاجة إلى مرزا شاه كي أمدّ يداً لزميل أقدّره وأحترمه.

تأمّل عتيق كيسه، عظام رقبته بارزة. بطرف قدمه، قلع حجرة، ثمّ باشر بحفر ثقب بداخل التراب. قال بصوت منقبض:

- هل يمكنني الانسحاب؟

- بالتأكيد، أي فكرة هذه...

شكره عتيق بحركة من الرأس وانصرف. وقف قاسم مباشرة واقتفى أثره قائلاً بلا مقدمات:

- كان هناك في جلالَباد عالم كبير، عالم يملك أجوبة لكل شيء. لا يوجد كتاب لا يعرفه. يحفظ عن

ظهر قلب الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، كما يعرف الأحداث التاريخية الكبرى التي طبعت التاريخ الإسلامي، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. لقد كان الرجل مذهلاً. فلو أطال الله عمره إلى يومنا هذا لانتهى به المطاف في أعلى المشنقة أو تحت المقصلة ذلك أن علمه يتجاوز كل اتفاق. ذات يوم، في حين كان يلقي درسه، جاء شخص وهمس له شيئاً في الأذن. شحب وجه العالم المشهور بغتة. سقطت السبحة من أصابعه. دون أن ينطق بكلمة، وقف وغادر القاعة. لم يرَه أحد بعد ذلك.

قطّب عتيق حاجبيه. ثمّ قال محترساً:

- ماذا يمكن أن يكون الغريب قد همَس في أذنيه؟

- لا تبيح الحكاية بسرّها.

- وعبرة القصة؟

- يمكن لنا أن نعرف كل شيء عن الحياة والبشر، ولكن ماذا نعرف حقاً عن أنفسنا؟ يا عتيق، يا صديقي الشهم، لا تعقّد حياتك أكثر مما هي عليه. سوف لن تتوقع أبداً ما تخبّئه لك في المستقبل. كف عن حشو رأسك بالأفكار الخاطئة، والتساؤلات المتشابكة والتفلسف غير المفيد. أن تملك أجوبة لجميع الأسئلة لا يحميك من مفاجآت الغد. كان العالم يعرف أشياء كثيرة، ولكنه يجهل الأساس. أن تعيش، يعني أوّلاً

وأخيراً، أن تكون مستعداً لتلقي السماء على رأسك في أية لحظة. إذا انطلقت من مبدأ أن الحياة ليست سوى اختبار، ستكون مجهزاً لتسيير أحزانها ومفاجآتها. في المقابل، إذا كنت مصرا على الانتظار أن تعطيك ما لا تقدر عليه، إنه الدليل القاطع أنك لم تفهم شيئاً. خذ الأمور مثلما هي، لا تجعل منها قبة ولا صحناً؛ لست أنت قائد السفينة، بل مجرى مصيرك. فقدت والدتي بالأمس. ذهبت اليوم لأترحّم على قبرها. الآن، جئت عند خورسان كي أتناول أكلاً. وهذا المساء، أنوي الذهاب عند حاج بَلْوان أجس نبض الأصدقاء. وإذا حدثت مصيبة أثناء ذلك، فليست نهاية العالم. لا يوجد أسوأ حبّ مثل النظرة التي نتبادلها في محطّة حينما ينطلق القطاران في اتجاهين متعاكسين.

توقف عتيق، رقبته دوماً منحنية. فكّر لحظة، ثمّ، رفع ذقنه وقال:

- واضح أن مظهري في حالة يرثى له.

- إذا أردت الصراحة، إنه يثقب العيون.

هزهز عتيق رأسه قبل أن ينصرف.

تابع قاسم ابتعاده بحزن، ثمّ حكّ تحت عمامته ورجع يلتحق بسائقه في دكان الشواء.

إن الحياة ليست إلا تلفاً محتوماً، هكذا فكّرت

مسرّة. أن نعتني بأنفسنا أو نُهْمِلها لا يغيّر في الأمر شيئاً. إن كل ولادة مآلها الموت، عاجلاً أو آجلاً؛ هذه هي سنّة الحياة. لو تُرك الجسد لهواه، لعاش البشر ألف سنة. ولكن الإرادة لا تملك دائماً وسائل إصرارها، وصفاء ذهن الشيخ ليس بإمكانه حثّ الركبتين على الإسراع أكثر. تكمن المأساة الأساسية للبشر في كون أن لا أحد يستطيع البقاء على قيد الحياة أبعد من أخلص أمانيه، والتي تشكّل فوق ذلك السبب الأساسي لمصائبه. أليس الكون هو إفلاس البشر والدليل البشع على هشاشتهم؟ قرّرت مسرّة أن لا تتهرّب من الحقيقة. لا ينفعها حجب عينيها. لقد كافحت ضد المرض الذي ينخرها، رفضت الاستسلام. الآن، حان وقت عدم إرهاق نفسها، والخضوع لقدرها بما أنه الوحيد الباقي بعد أن جرّبت كل شيء. إنها نادمة فقط على الانهيار في سنّ يمكن فيها ترويض الأوهام. في سنّ الخامس والأربعين، لا تزال الحياة أمامها، أكثر تبايناً، أكثر اعتدالاً؛ تصبح الأحلام أقل ولعاً بالأكاذيب، والاندفاعات رزينة، والجسد، حينما تقلعه مخالب الرغبة من وهنه، يرتعش في جلاء بحيث ما يفقده العناق في الطراوة، يسترجعه في الحدّة. إن الأربعين سنّ التعقّل، ورقة أساسية لمعايشة التحديات. يكون الاقتناع قوياً إلى حدّ لا يشك لحظة في عدم الانتصار. لا تشكّ مسرة. غير أن اقتناعها لن ينتصر. لن

تحدث معجزة. وهذا يحزنها. ومع ذلك، بلا إفراط؛ في جميع الحالات بلا فائدة وأقرب إلى السخرية، بل ومُجدِف. صحيح أنها كانت تتمنى أن تتجمّل، أن تكحّل عينيها، وتفتحهما على اتساعهما كي لا يفوتها شيء من عيني عتيق. ولكن الآن، لم يعد هذا الترف ممكناً لها. يصعب قبوله في سنّ الخامس والأربعين. للأسف الشديد، أن يكون المرءُ مريضاً لا يعفيه من أشياء كثيرة. إن الصورة التي تعكسها لها المرآة الصغيرة، الثلمة، لا تقبل النقض؛ إنها تتعفّن أسرع من صلواتها. لم يعد وجهها إلا جمجمة مجرّدة، بخدين محفورين وشفتين داخلتين. لقد اكتست نظرتها بلمعان باهت، شفّاف، جليدي؛ لمعان زجاج غرق في عمق حدقتي عينيها. ويداها، يا إلهي... عظميتان، مغطيتان بجلد رقيق شاحب، مغضّن كما الورق، يصعب عليه التعرف على الأشياء عند اللمس. هذا الصباح، عندما انتهت من مشط شعرها، جمعت حفنة من الشعر في أصابعها. كيف يمكن لها أن تفقد كل هذا الشعر في وقت وجيز؟ لفّته حول عمود خشبي وخبأته في شقّ جدار، قبل أن تترك نفسها تنزلق على الأرض، رأسها بين يديها، وانتظرت مجيء دمعة توقظها لنفسها. وعندما لم ترَ شيئاً آتياً، جرّت جسدها المنهوك، زاحفة، إلى غاية الفراش. هنا، جلست كالناسك الزاهد، على غطاء، وواجهت الجدار مدّة ساعة أو يزيد. لقد كانت

ستواصل إدارة ظهرها للفناء يوماً كاملاً لو لم تخنها قواها. أنهكها عنادها، فتمددت على الأرض وغرقت في النوم بغتة، فمها مفتوح على تأوّه طويل.

حينما وجدها عتيق منهكة على الأرض، فكّر مباشرة في الأسوأ. الغريب في الأمر أن كيسه لم يسقط من يده ولم يضطرب تنفسه. فلقد بقي واقفاً عند عتبة الباب، حاجب أعلى من الثاني، وامتنع عن إحداث أي صوت. وخلال دقائق عديدة، راقب الجسد، باليد المقلوبة نحو السقف والأصابع المطوية والفم الفاغر والصدر المتيبس، يتربص إشارة حياة. لم يرتعد خيط من شعر مسرّة. يبدو أنها ماتت فعلاً. حطّ عتيق كيسه على مائدة، ثمّ، اقترب من جسد زوجته الجامد، يبتلع ريقه. جثا على الأرض بحذر شديد؛ في اللحظة التي انحنى فيها على معصمها الشاحب كي يجس نبضها، دفعه تنفسها إلى الخلف. تحرّكت تفاحة آدم في رقبته بفظاظة. مدّ أذنيه، شاكاً في رعشة خفيفة عابرة، قدّم أذنه من الوجه المغلق. من جديد، لفح نفس خفيف خدّه. ضمّ شفتيه كي يكبح غيظه، انتصب قليلاً، ورجع القهقرى إلى غاية الجدار، مغمض العينين، ومنقبض القبضتين، ثمّ جلس. تأمّل الجسد الممدد عند قدميه، مشدود الفكين، الذراعان مشبكان بصرامة على البطن، كما لو أنه يحاول اختراقه بالنظر.

10

نفد معين صبر محسن رمات، ولم تعمل الأيام اللامتناهية التي يقضيها بانتظام في المقبرة إلا على تفاقم قلقه. وبالرغم من طول تيهه بين الرموس، لم يتمكن من إعادة أفكاره إلى مكانتها الطبيعية حيث تتملّص منه الأمور بسرعة مذهلة؛ لذلك لم يعد يعثر على علاماته. وعوض مساعدته على التركيز، زادت عزلته في إضعافه وتأجيج ضيقه. أحياناً، تجرفه رغبة جنونية في الاستيلاء على قضيب حديدي وتخريب كل ما يحيط به؛ أما الغريب في الأمر فكان أنه كلّما شدّ رأسه بين يديه، يتحوّل غضبه إلى رغبة لا تُقهر في الانفجار بكاءً، فيستسلم هكذا لخوَره، ضاغطاً على أسنانه ومغمضّ العينين.

لقد كان يحسّ أن الجنون يعصف بألياف مخه.

لم يعد يميّز النهار من الليل منذ ذلك الشجار في زقاق كابول. شيء ما، لا رجعة فيه، عاقب ذلك

الخروج المشؤوم. آه، لو استمع إلى زوجته. كيف تسنّى له الاعتقاد أن نزهة العشاق لا تزال ممكنة في مدينة بأسمال مأوى المحتضرين، تعيث فيها فساداً بعض الكائنات المتوحشة التي تحمل في نظرتها حُلكة العهود الحجرية البالية؟ كيف غربت عن باله تلك الفظائع التي تنغّص أيّام أمّة أُذلّت إلى حدّ أصبح فيها الكرباج لغتها الرسمية؟ كان عليه ألا ينساق خلف الأوهام. لقد رفضت زُنيرة هذه المرة أن تطوي الصفحة. إنها ناقمة عليه، لا تتحمّل رؤيته، ولا حتى أن تسمع صوته. ترجّاها: "لوجه الله، لا تزيدي الطين بلّة". رمقته زُنيرة بازدراء، العينان غاضبتان تحت القناع المسيّج حيث انتفض صدرها في ارتداد ساخط. لقد بحثت عن كلماتها، أقسى الكلمات وأضرها، كي تقول له مدى تألمها بسبب ما أصبح يمثله عندها، وأنها لم تعد تفصل بينه وبين أولئك المعمّمين الذين حوّلوا الأزقة إلى حلبات صراع والأيام إلى احتضار، وكم أصبحت مجاورة رجل تزدريها وتحزنها في آن. وعندما لم تعثر على الكلمات الأكثر حدّة لتعبر عن مرارتها وأشجانها، غلقت على نفسها في غرفة وبدأت تصرخ كما المجانين. أسرع محسن إلى مغادرة البيت، مرعوباً بنعاب زوجته المصم. وابتعد ركضاً. فلو أن الأرض انشقّت تحت قدميه، لم يكن ليتردّد على تركها تنغلق عليه. كان شيئاً فظيعاً حقاً. امتدّ صراخ زنيرة عبر

الحيّ، يؤلّب عليه الجيران، ويطارده كما يفعل سرب من الكواسر الضارية. أحسّ بدوار في الرأس. خُيّل إليه أنها نهاية العالم.

لم تعد زنيرة مثلما كانت عليه سابقاً؛ تلك المرأة اليقظة، الشجاعة، التي تساعده على تجاوز المحن والنهوض منها كلما شعر بالانهيار. إن تلك المخلوقة التي قرّرت عدم نزع شادورها غرقت بطواعية في عالم فظيع لا يبدو أنها ستخرج منه يوماً. فهي تذرَع أرضية البيت، من الفجر إلى الغروب، ملفوفة بعناد في حجابها المشؤوم الذي لا تغادره حتى أثناء النوم. أسرّ لها متوسلاً: "إن وجهك هو الشمس الوحيدة التي بقيت لي، فلا تمنعيني من الاستضاءة به..." ردّت وهي تسوي قناعها المسيّج، إبعاداً لأي لبس: "لا يمكن لأي شمس أن تقاوم الليل". لم تنزعه منذ إذلال ذلك اليوم. أصبح قلعتها وملجأ هروبها، رايتها وجحودها. بالنسبة لمحسن، إنه الحاجز الحقيقي الذي ينتصب بينه وبينها، رمز القطيعة الموجعة التي يهدّد بتفريقهما. منعت نفسها عن نظرته، ما يعني أنها سحبت نفسها من عالمه، وأنكرته كلية. هدّه هذا الموقف المتطرف. حاول أن يفهم؛ فلا شيء يوجد للفهم. هل تعي زنيرة بمبالغاتها؟ مهما يكن، فإنها تضطلع بمسؤوليتها بحماس ساخر. حينما يحاول الاقتراب منها، تتراجع القهقرى، شاهرة ذراعيها نحو الأمام كي تبقيه بعيداً عنها. لا يلحّ

محسن. بدوره، يرفع يديه علامة العدول ويخرج إلى الشارع، فقار الظهر منحنٍ تحت ثقل قاتل.

عشرة أيام.

مرت عشرة أيام يزحف فيها سوء التفاهم لتمتين أسوار عزلته.

عاش عشرة أيام في هذيان نذل، في عاهة مطلقة.

"لا يمكن للوضع أن يستمر" هكذا كان محسن يقول كلما عاد إلى بيته. ولكن لمن يوجّه هذا الكلام؟ لم تتنازل زُنيرة عن شبر واحد من حصنها، ولم تدنِ قيد أنملة من غمدها الواقي. لم يؤثر فيها حزن زوجها؛ بالعكس، إنه يضجرها. لم تعد تتحمّل نظرته الخنوعة وصوته المتمتم. تتوقف بغتة عن كل عمل كانت تقوم به بمجرد تعرفها على خطاه في الفناء، وتهرع مُسرعة إلى الغرفة المجاورة. يضغط مُحسن على فكيه كي يكبح غيظه، ثمّ يضرب كفاً بكف ويرجع على أعقابه.

حظي هذا المساء بالاستقبال نفسه. فلم يكد يدفع باب الفناء حتى رآها تعبر القاعة وتختفي خلف ستار الغرفة، أكثر خلسة من هلوسة. ارتجّ كامل كيانه لبعض اللحظات؛ من غير المقبول أن يولّي أدراجه مصفقاً الباب وراءه. لم ينفعه خروجه الساخط المتكرّر في شيء. على العكس تماماً، لقد زاد في اتساع الهوة التي تفصله عن زوجته. فكّر بأن الوقت قد حان للذهاب إلى

عمق المشكلة. إنها اللحظة التي يخشاها، بسبب تعنت زنيرة العجول وغير المتوقع، ولكن أيضاً لأنه لم يعد يتحمّل وضعاً لا يتوقف عن التدهور.

تنفس الصعداء والتحق بزوجته داخل الغرفة.

كانت زنيرة جالسة على حصير، الظهر مستقيم. يشعر بها مضغوطة كما النابض، مستعدة للوثوب على ساقيها. لم يشاهدها محسن في حالة مشابهة أبداً. كان صمتها مثقلاً بالعواصف. حينما تلتزم السكوت بهذه الكيفية، تصبح زنيرة عصيّة الفهم، مما يصيّر كل محاولة إلى مقاربة محفوفة بالمخاطر. خاف مُحسن خوفاً مرعباً، كأنه مفكّك مفعول قنبلة، يدرك تمام الإدراك أن حياته مرهونة بخيط. لقد كانت زُنيرة دوماً صعبة المراس. إنها شخص مخدوش، ترفض أن تكون في وضع ضحية، ولا تتسامح إلا نادراً. ربما يخشاها لهذا السبب، ويفقد رباطة جأشه كلّما قطّبت حاجبيها. الساعة حاسمة. يرتعد مُحسن، ومع ذلك لا خيار له. يترقّب إشارة، إشارة صغيرة جداً من شأنها أن تنفث في كيانه ولو ذرة من الثقة. لا شيء. لم تتحرّك زنيرة. وخلف موقفها الشبيه بموقف أبي الهول، يشعر بها تغلي، كما لو أن حمأة جرافية تتخمّر في أعماقها، منتظرة أن تنفجر دون سابق إنذار، أعنف من بركان. وبالرغم من أن ملامح وجهها تختفي تحت القناع

المسيّج إلا أن محسن مقتنع أنها تحدجه بحقد. قال بنبرة واهنة:

- على ماذا تلومينني بالضبط؟ لأنني لم أقاوم ذلك الحارس الأحمق؟ ماذا كان بمقدوري أن أفْعَل ضده؟ إنهم أسْياد المدينة ويفرضون قانونهم. يملكون حقّ الحياة والموت على الجميع. هل تعتقدين أن تصرفاتهم لا توجعني؟ ستغيظ دابة. حينما أفكّر أن ذاك الحارس الكلب لا يستحق حتى تقبيل آثار قدميك على التراب. أنا واعٍ تماماً بالدناءة التي تفتّت وثبات الكبرياء القليلة التي لَم أعد قادراً على الجهر بها، ولكن، من أجل راحة أمواتنا، قولي لي ما كان بمقدوري أن أفعله، يا زنيرة؟

جثا بقربها متلهفاً، مضطرباً، حاول أن يأخذ يدها. ارتمت إلى الخلف وانكمشت داخل كفنها. غمغم مُحسن:

- تصرفك مثير للسخرية. حقاً، إنه مثير للسخرية. تعاملينني كأنني مصاب بالطاعون... لا تديرين لي ظهرك يا زنيرة. ينتابني إحساس أن العالم بأسره يرفضني. لا أملك سواك. أنظري إلي يديّ كم تتوسلان إليك، وكم أنا ضائع بدونك. أنت الحبل الوحيد الذي يربطني إلى شيء ما في هذا العالم.

نفخت الدموع جفونه. لا يفهم كيف تمكنت من

مخادعة يقظته والتدحرج على خديه، أمام زنيرة... زنيرة التي تكره بكاء الرجال. قال معتذراً:

- لقد أنهكني الضرّ، يا زنيرة. فجأة أصبحت أخاف من أفكاري. يجب أن أسترجع قوتي. تصرفك كابوس فظيع. لا أعرف ماذا أفعل بأيامي الفارغة، ولا بالليالي الطويلة الآرقة. إنك السبب الوحيد الذي يبقيني على قيد الحياة، إن كان للحياة معنى في هذه البقاع اللعينة.

من جديد، حاول أن يأخذ يدها.

أطلقت زنيرة صرخة ووقفت، مختلجة.

- قلت لك ألف مرّة لا تلمسني.

- ما هذه الحكاية؟ إنني زوجك...

- أثبته.

- هذا جنون. أين تريدين الوصول في نهاية المطاف؟

قلعت زنيرة جسدها من الجدار لتنتصب قبالته، كادت تلمسه من طرف أنفها. ارتجف شادورها تحت تنفسها اللاهث من فرط الغيظ الذي انتابها.

- لا أريد أن أراك ثانية أمامي، يا محسن رمات.

لم يكن تفجير ليهزّ كيانه كما فعلت هذه الجملة. ذهل محسن من قول زوجته. لم يصدّق في البداية، قضى لحظات كي يهضم حقاً معنى ما سمع. ارتجّت تفاحة آدم في حلقه. ضرب كفاً بكف ودار على أعقابه.

في داخل الغرفة، تقابض النفَسان في طنين خارق. بغتة أطلق محسن حشرجة فظّة وضرب بقبضة يده على مصراع النافذة، بقوة أوجعته.

تشنّجت قسمات وجهه من فرط الألم، ثمّ واجه زوجته صارخاً مهدّداً:

- أمنعك من مخاطبتي بهذه الطريقة، يا زنيرة. لا حق لك في هذا. هل تسمعينني؟ أمنعك نهائياً.

أمسكها من الرقبة وهزّها بعنف.

برباط جأش مذهل، فكّت زنيرة الأصابع التي تقبض على عنقها وكرّرت بصوت مرتجّ:

- لا أريد أن أراك ثانية أمامي.

مسح محسن يديه النديتين على جانبيه، هلعاً، كما لو أنه أراد مسح آثار فظاظته، بحث حوله، ثمّ شدّ صدغيه براحتيه وحاول تهدئة نفسه، بعد أن لاحظ أن الوضع قد تدهور. قال مستسلماً:

- حسنا... يبدو أنني رجعت اليوم باكراً. سأعود من حيث أتيت. وإذا أردت، قضيت الليلة خارج البيت. حتماً، يجب منح فرصة للمصالحة. أحبّك، زنيرة. هذا هو، لا أملك كلمات أخرى أكثر تعقلاً. ما تلفظت به قبل قليل يعد أفظع تصريح سمعته في حياتي. ولأنه صدر منك، فكان وقعه عليّ بمثابة تجديف مرعب. الآن، تأكّد لدي كم كان ضرورياً أن أبتعد عنك بعض

الوقت، ريثما تهدئي. سأعود غداً، أو بعد يومين. لا أعرف كيف سأتدبّر أمري خلال هذه الفترة، ولكن لا بأس. أنا مستعد لكل شيء من أجل إنقاذ زواجنا. حاولي أن تفعلي الشيء نفسه من جهتك. أحبّك. مهما حصل بيننا، أريد أن تعرفي حقيقة عاطفتي اتجاهك. إنه مهم جداً. لا شيء أهم منه.

لم تضعف زنيرة. تحرّكت شفتاها بخطورة تحت القناع المسيّج. حطّ محسن يده على فمها:

- ولا كلمة. قلتِ ما فيه الكفاية هذا اليوم. أتركيني أتمنى أن الأمر ليس إلا لحظة انفعال سيئة، وأن الوضع سيعود إلى مجراه الطبيعي غداً.

تراجعت زنيرة إلى الخلف كي تتخلّص من يد زوجها. قالت:

- أظن أنك لم تفهم جيداً قصدي. لا أريد أن أراك ثانية أمامي، محسن. ليست كلمات تذروها أوّل عَصْفَة، ولا يمكن للأيام المقبلة أن تغيّر منها شيئاً. ستخرج من حياتي ولن ترجع إلى هذه الدار ثانية. وإلا، سأغادرها أنا.

انتفض مُحسن، ممزقاً قميصه بحركة حانقة، كاشفاً على صدر نحيف، شاحب. قال:

- ولكن لماذا؟ قولي أين أسأت إليك كي أستحق هذا المصير الذي يسقط عليَّ كالصاعقة الهوجاء؟

- انتهى كل شيء، يا مُحسن... المسألة واضحة وُضوح الشمس: لم يعد يجمع بيننا شيء. كل ما أطلبه منك أن تخرج من حياتي نهائياً.

هزّ محسن رأسه بالنفي.

- هذا ليس صحيحاً. أرفض قبوله.

- إنني آسفة.

همّت بالانسحاب. شدّها من الذراع وجذبها إليه بعنف.

- إنني لا أزال زوجك، يا زنيرة رمات. لم أرَ ضرورة لتذكيرك به، ولكن بما أنك ركبت رأسك، سوف لن أتردّد عن ذلك. هنا، أنا الزوج والحاكم معاً. ليس من تقاليدنا أن تطلق المرأة زوْجَها. لم يحدث هذا من قبل. ولن أسْمَح به اليوم. منذ عشرة أيام، كنت أحاول أن آخذ الثقل على عاتقي، آملاً أن تتعقلي وتتفطني إلى تهورك. الظاهر أنكِ لا تريدين التعقّل، وأنا، نفد صبري ولم أعد أطيق استمرار هذه الوضعية الحمقاء.

تخلّصت من قبضته بهزّة.

التحق بها، لوى رسغها وأجبرها على مواجهة بصره.

- أوّلاً، يجب أن تنزعي هذا الشادور المشؤوم.

- مستحيل. ألم تفرضه الشريعة علينا؟

- ستنزعينه فوراً.

- أوّلاً، أطلب الإذن من حراس الطالبان. هيا، أظهر لي شجاعتك. اذهب واتصل بهم وافرض عليهم إلغاء قانونهم، وسأنزع، أنا، شادوري في الدقيقة الموالية. لماذا تبقى هنا تصرخ في وجهي، وتنفخ في عضلاتك لتخيفني، عوض الذهاب لتأديبهم حتى يدركوا بوضوح صوت الله؟ وبمَ أنك زوجي، اذهب واقبض على اللقيط النتن الذي تجرأ ووضع يده على زوجتك واقطع يده. تريد رؤية وجهي، الشمس الوحيدة الباقية لك؟ أثبت لي أن النهار قد طلع، وأن الليل المخزي لم يكن سوى كابوس مزعج، وأنه ليس إلا ذكرى بعيدة.

أمسك محسن حجابها، جذبه إليه بقوة. تلوّت زنيرة في جميع الجهات لمنعه. أعقب اللهاث التأوهات واللعنات. تشبّثت زنيرة بالشادور، برغم الألم الذي أحدثته لها الالتواءات العنيفة التي تعصرها في أماكن عديدة. وبمَ أن زوجها لم يرخِ قبضته، فعضته من الكتف، ثمّ الذراع، ثمّ الصدر، دون أن تتمكن من ثنى عزيمته. في ذروة يأسها، خدشته بوحشية على الوجه. تفاجأ محسن من النهشة التي قطّعت وجنته، فتراجع إلى الخلف. تدافع لجّ من الألم على حدقتيه، فأجبر على غمض عينيه؛ اختلج منخاراه من السعار. فرسمت يده الهائجة خطّاً مقوّساً خاطفاً وارتمى على خدّ الزوجة التي انهارت على الأرض، مصعوقة.

تفحّص محسن يده، مرعوباً من فعله. كيف تجرأ؟ لا يتذكر أنه رفع مرّة واحدة أصغر إصبعه عليها. لم يتخيّل في أية لحظة أنه قادر على توبيخها أو لومها على أي فعل. نظر إلى يده، كمن لا يتعرف عليها. غمغم: "ماذا يحدث لنا؟" كان في ذروة الاضطراب، فجثا أمام زوجته يرتعش كما الورقة.

- اسمحي لي. لم أقصد...

نهرته زنيرة، تمكنت من الوقوف وابتعدت متمايلة نحو القاعة.

تبعها متوسلاً.

- لستَ إلا فظاً حقيراً ولا تساوي أفضل من هؤلاء المجانين المسعورين الذين يجوبون الشوارع.

- اسمحي لي.

- لا أقدر وإن أردت.

أمسكت بذراعه، التفتت إليه كلية، استجمعت كل ما لديها من قوة وقذفته ضد الجدار. تعثر محسن على قنينة وسقط على قفاه. صدم رأسه نتوءاً صلباً في واجهة الجدار قبل أن يرتطم بعنف على الأرض.

حينما استرجعت زنيرة كل صفائها، انتبهت إلى أن زوجها لا يتحرّك. يقبع أرضاً، رقبته معوجة بشكل لافت للنظر، فمه فاغر وعيناه مفتوحتان على اتساعهما. وعلى وجهه الشاحب، استقرت سكينة غريبة، لا يكاد يشوّهها إلا خيط دم تسرّب من منخره. صاحت:

- آه، إلهي...

11

قال الميليشي:

- يطلب منك قاسم عبد الجبار ألا تغادر مرقَبك اليوم. سيأتيك بمُقيم جديد.

هزّ عتيق، الجالس على مقعد عند مدخل السجن، كتفيه دون أن تفارق عيناه الشاحنات المعبأة بالمقاتلين وهي تغادر المدينة في هدير يتعذّر وصفه. لقد شقّ زعيق السواق وضربات الأبواق الحشد كما مكسّر الجليد، فيما كان الأطفال يركضون في جميع الاتجاهات صارخين، يتسلّون بالبلبلة التي يحدثها الموكب العسكري. وصل الخبر هذا الصباح: وقعت فرق الرائد مَسعود في كمين وترسل كابول قوات دعم للقضاء عليها.

أما الميليشي فكان ينظر هو الآخر إلى المركبات العسكرية وهي تعبر الحيّ كعَصْفة ريح، تتعقبها زوبعة

غبار. وبطريقة غريزية، تدعك يده السوداء من آثار الجروح مِغْلاق بندقيته. بصق جانباً وغمغم:

- سيكون القتال هذه المرة حميَ الوطيس. يبدو أننا فقدنا عدداً كبيراً من الرجال، ولكن المارق مَسعود محاصَر كالجرذ. سوف لن يرى "بانْتشيره" المشؤوم ثانية.

التقط عتيق كأس شاي كان يقبع عند قدميه وأخذه إلى فمه. أغمض عيناً بسبب الشمس، تفحّص الميليشي قبل أن يدمدم قائلاً:

- أتمنى ألا يبقيني قاسِمُك هنا طوال النهار. تنتظرني أشغال كثيرة.

- لم يحدّد لي ساعة الموعد بالضبط. لو كنت مكانك، سوف لن أتحرّك من هنا. أنت تعرف قاسم جيداً...

- لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه.

غضّن الميليشي جبينه العريض والبارز. تفرّس السجّان بسحنة ضجرة:

- أنت لست على ما يرام هذا الصباح.

حطّ عتيق شوكَت كأسه، شفتاه متراخيتان. بدأ حضور المليشي يزعجه. لم يفهم لماذا لا ينصرف الآن بعدما أبلغ رسالته. تأمّله لحظة، وجد هيئته منفّرة بلحيته الشعْثاء وأنفه المُفَلْطح وعينيه الرميصتين ونظرته الهامدة.

قال الميليشي كما لو أنه قرأ ما يدور بخلد السجّان:

- يمكنني الذهاب إن أردت. ليس من عادتي إزعاج الناس.

كتم عتيق تنهداً واستدار جانباً. لقد مرّت المركبات العسكرية الأخيرة فارتفع هدير محركاتها خلف الأنقاض لدقائق معدودة، ثمّ خيّم الصمت كثيفاً، ومعه خفّ ضجيج الأطفال. واصل الغبار تحليقه في الفضاء، محجباً جزءاً من السماء حيث يجثم قطيع من الغيوم كالعهن المنفوش، ببياضها المفجع. وبعيداً خلف الجبال، بدا لعتيق أنه يسمع دوي التفجيرات التي يزوّرها الصدى على هواه. فمنذ يومين، تطقطق طلقات الرصاص متشتتة وسط اللامبالاة السائدة. أما في كابول، وبالأخص داخل أسواق البازار، فيطغى ضجيج التجار المضاربين على جوقة أسوأ المعارك. تباع حزم الأوراق النقدية بالمزايدة، تبنى الثروات وتهدّ على حسب الأمزجة، ولا عيون للناس إلا على الربح والاستثمار؛ أمّا أخبار الجبهة، فتراقَب خلسة كما لو أنها ستؤجّج حركة المتاجرة. أحسّ عتيق بالقرف. بدأ بدوره يتساءل جدياً إن لم يحن الوقت لاقتفاء أثر نازيح. أخيراً، انتهى الأمر بالشقي المسكين إلى اتخاذ قراره؛ فذات صباح، لمّ سقط متاعه و أسماله وتبخّر في الطبيعة، دون كلمة لأولاده الذين بحثوا عنه طوال

أسبوع كامل دون جدوى. أكّد الرعاة أنهم رأوا الشيخ في الجبال، ولكن لا أحد أخذ كلامهم مأخذ الجد. ففي سنّه المتقدّمة، يكون نازيح عاجزاً على مواجهة أقلّ التلال المجاورة ارتفاعاً، وبالأخص تحت القيظ السائد. ومع ذلك، اقتنع عتيق بأن الإمام السابق يكون قد غامر فعلاً بداخل الجبال، فقط ليؤكّد له، هو السجّان القاسي والساخر، بأنه مخطئ بإعلان دفنه قبل الأوان.

جثا الميليشي فجأة كي يأخذ كأس السجان. قال:

– أنت إنسان ودود. أجهل ما أصابك هذه الأيام الأخيرة، ولكن لا بأس، سوف لن ألومك إن طردتني.

تنهّد عتيق وهو ينظر إليه يشرب من كأسه بازدراء.

– أنا لا أطردك. أنت الذي تتكلّم عن الذهاب.

وافق الميليشي. قرفص، ثمّ أسند ظهره للجدار وعاد إلى دعك رشاشه الكلاشنيكوف.

بعد صمت طويل، سأله عتيق:

– كيف هي أحوال كعْب؟ لم أره منذ دهر.

– أي كعب تقصد؟ صاحب المدرعات؟

– لا يوجد إلا واحد.

التفت الميليشي نحو الحارس، مقطباً حاجبيه استغراباً.

– أتريد أن توهمني بأنك لست على علم؟

– على علم بماذا؟

- لقد مات كعب منذ أزيد من سنتين، أنسيت؟
- مات؟
- يكفي عتيق. لقد حضرنا نحن الاثنين جنازته.
مطّ السجّان شفتيه، حكّ صدغه، ثمّ، حرّك لحيته علامة الحيرة والجهل.
- كيف حدث أنني نسيت؟
راقبه الميليشي بطرف العين، تقض الحيرة باله:
- ألا تتذكّر؟
- أجل.
- غريب.
استرجع عتيق كأسه، انتبه إلى أنه فارغ. تأمله بسحنة شاردة وحطّه تحت المقعد.
- كيف مات؟
- ألست تسخر مني، يا عتيق شوكَت؟
- صدّقني، إنني جاد معك.
- انفجرت دبابته أثناء تدريب للرمي. كانت شحنة القذيفة فاسدة. عوض أن يلتزم بإجراءات الأمن وينتظر دقيقة الملاحظة القانونية، باشر فجأة بقذف الصاروخ الذي انفجر بداخل البُرَيْج المصفّح. تخلّعت الدبابة على مسافة خمسين متراً.
- وهل عثر على جثة كعب؟
أعطى الميليشي ضربة على الأرض بأخمص بندقيته ثمّ وقف، متأكداً هذه المرة أن السجّان يسخر منه.

- يبدو حقاً أنك لست في أحسن حالك اليوم. بصراحة، حالك لا يعجبني.

وعليه، بصق على الأرض وابتعد وهو يغمغم ساخطاً لاعناً.

عند نهاية الظهيرة، وصل قاسم عبد الجبار داخل مركبة مفكّكة. أمسكت الميليشيتان اللتان ترافقانه بالسجينة ودفعتاها باتجاه البناية. أغلق عتيق الباب بالقفل على مقيمته الجديدة، بداخل زنزانة صغيرة، في آخر الرواق، تنبعث منها روائح كريهة. كان شارد الفكر وحركاته آلية، ولا يبدو عليه أنه يدرك فعلاً ما يدور حوله. ترقّبه قاسم بصمت، مشبكاً ذراعيه على صدره، يلقى نظرة حادة من فوق قامته المديدة الشبيهة بقامة المصارعين. عندما عادت الميليشيتان إلى المركبة، قال له:

- ستحظى على الأقل برفقة.
- مجرد كلام.
- ألا تريد أن تعرف ماذا فعلت؟
- وفيمَ يفيدني؟
- قتلت زوجها.
- إنها من الأشياء التي تحدث.

أدرك قاسم اشمئزاز السجّان الطافح على ملامحه. وهو ما أثار في نفسه غيظاً متأججاً، ولكنه كبح رغبة

تأديبه. لمس لحيته بسحنة مستغرقة، ثمّ عاد إلى عمق الرواق، وقال:

- ستبقى هنا مدّة أطول من الأخريات.

تساءل عتيق بحيرة:

- لماذا؟

- بسبب التجمع الشعبي الكبير الذي سيعقد يوم الجمعة في الملعب. ستحضره شخصيات ذات مقام رفيع. وقد قرّرت السلطات تنفيذ حوالي عشرة إعدامات عمومية برغبة إضفاء حماس وابتهاج على الحفل. وستكون مقيمتك من ضمن العدد. في البداية، أراد القضاة قتلها رمياً بالرصاص وفوراً. ثمّ، وبما أن أغلبية المبرمجين يوم الجمعة رجال، مدّدوا حياتها بخمسة أيام.

هزّ عتيق رأسه، دون اقتناع.

حطّ قاسم يده عل كتفه.

- انتظرناك ذاك المساء عند حاج بَلْوان.

- منعني شغل طارئ.

- والأمسيات الأخرى كذلك؟

فضّل عتيق الانصراف. لجأ إلى الغرفة الضيقة التي يستخدمها كمكتب له. تردّد قاسم لحظة قبل أن يقتفي أثره.

- هل فكّرت في اقتراحاتي؟

صدرت من عتيق قهقهة خافتة وعصبية.

- أوّلاً، ينبغي أن يكون لدي رأس كي أفكر في شيء ما.

- أنت ترفض رفع رأسك. الأمور واضحة. يكفي فقط أن تنظر إليها بصرامة.

- أرجوك يا قاسم، ليست لدي على الإطلاق رغبة في إثارة الموضوع من جديد.

رفع عبد الجبار يديه إلى مستوى صدره، وقال معتذراً:

- موافق، أسحب كلامي. ولكن، بربّك، أسرع وخلِّصنا من سحنة الشؤم التي تكسو وجهك.

12

لم يفهم عتيق شوكَت من الوهلة الأولى. انفجر صمام بداخله واخترقته نفحة كزازية من الرأس إلى القدمين، كما لو أنه تلقى على جسمه شلال ماء مثلج. سقطت الطنْجرة التي كان يمسكها بين يديه وارتطمت على الأرض، فتناثرت كريات الأرز على التراب. وخلال ثلاث أو أربع ثوانٍ، خيّل إليه أنه أصيب بالهلوسة. فلقد صعقته الرؤية التي سفَعتْه بقوة مذهلة، فانزوى في غرفته الضيقة بقصد استرجاع صفاء ذهنه. كذلك أزعجه النور المتسرّب من النافذة، وزادت صيحات الأطفال المتحاربين في الخارج من تشوّش تفكيره، فترك نفسه ينهار على السرير الميداني، ضغط بأصابعه على صدغيه ولعن مرات عديدة الشيطان كي يبعد عنه التأثيرات الشريرة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

بعد أن استعاد جزءاً من صفاء ذهنه، عاد إلى

الرواق يبحث عن طنْجَرته، يسترجع الغطاء الذي تدحرج بعيداً ويلتقط كريات الأرز المتناثرة على الأرض. وبالرغم انشغاله بتنظيف الأرضية، رفع عينيه بحيطة إلى القضبان المقفلة، إلى كوّة السقف الجاثمة على التجويف كما طائر النحس، أطال النظر على الضوء الخافت الشاحب الذي يذبل عند السقف، ثمّ، عانق جرأته بحزم، وعاد إلى الزنزانة، وهناك، في وسط القفص، تراءت له الرؤية العجيبة... نزعت السجينة شادورها. تربّعت على الأرض، المرفقان على الركبتين، واليدان مضمومتان تحت الذقن، يبدو أنها انتهت تواً من صلاتها. ذُهل عتيق. أبداً، لم يرَ قبل هذا اليوم جمالاً ساطعاً مماثلاً. للسجينة جمال خارق، برشاقتها التي تنافس رشاقة حور العين، وشعرها الطويل المتهدّل على كتفيها وظهرها، وعينيها الواسعتين الشبيهتين بالأفق اللامع حيث يخال إلى الناظر إليها أنها بدر يشعّ في حلكة هذه الزنزانة المتعفنة، المنفّرة، المشؤومة.

باستثناء وجه زوجته، لم يرَ عتيق وجه امرأة منذ سنوات عديدة، فهو اعتاد على العيش بلا وجوه الحِسان. فبالنسبة إليه، وباستثناء مسرّة، لا توجد إلا الأشباح، بلا صوت ولا جاذبية، تعبر الشوارع دون أن تثير النفوس؛ أسراب من السُنونوات الآيلة على الهلاك، زرقاء أو صفراء، حائلة في الغالب، متأخرة

بمواسم عديدة، والتي تطلق صوتاً كئيباً عندما تمرّ بقرب الرجال.

يسقط حجاب بغتة، وينبثق منه العجب العجاب. لم يصدّق عتيق عينيه. هنا، أمامه، تتربّع امرأة في كامل بهائها، رشيقة القدّ، مكتملة، بوجه حقيقيّ، قابل للمس، مكتمل هو الآخر؟ منظر عجيب حقاً. لقد انفصل منذ زمن بعيد عن مثل هذا الواقع الذي تصوّر أنه ألغي نهائياً وإلى الأبد من الأذهان. فحينما كان شاباً، في سنوات المراهقة، حدث له أن اخترق حريم بعض القريبات بقصد التلصّص عليهن، خلسة وعن بعد ليس إلا، يسترق السمع لقهقهاتهن، ويتفرّس على رشاقة أجسادهن الغضّة، وخفة تحركاتهن. ذهب به الأمر إلى الوقوع في غرام معلمته الأوزباكية التي تكبره بعشر سنوات، والتي تجعل ضفائرُها اللامتناهية مشيتَها أكثر سحراً وجاذبية من رقصة صوفية. في ذلك العمر الشاغر حيث تصمد الأساطير بشكل مؤثر لحصار الأفكار المسبقة والتقاليد، كان مقتنعاً أنه يكفيه الحلم بفتاة كي يلوح له جناح من أجنحة الجنة. صحيح أنه ليس أضمن طريق للوصول إليها، ولكنه كان أقلها قسوة... وبعد ذلك، لا شيء. تعفّر وتفتّت عالم الجرأة اللذيذ حيث تحجب الأحلام ملامحها. لقد سقطت كاغولة مسيّجة وصادرت كل شيء، الضحك والابتسامة والنظرات الخجولة وغمّازة الخدود وحفيف الأهداب...

في الغد، انتبه عتيق إلى أنه قضى الليلة بأكملها جالساً في الرواق مقابل السجينة، ولم يفارقها بصره لحظة واحدة. انتابه إحساس غريب، شعر بخفة في الرأس ويوجع في الحلق. خُيّل إليه أنه استيقظ في جلد شخص آخر. استحوذ شيء ما على أعماقه مثل هلوسة صاعقة، تهيمن على أفكاره، تضغط على نبضات قلبه، تنظم إيقاع تنفسه، وتنشّط أدنى رَجَفاته، تارة جامدة وصلبة كما عود القصب، وتارة أخرى كما اللبلاب الزاحف الذي يتلوّى حول رقبته. لم يجهد عتيق نفسه لمعرفة ماذا يحدث له تدقيقاً. وبدون تألّم، يأخذ على عاتقه تلك الأحاسيس المدوّخة القاصمة، تلك النشوة اللذيذة التي تربك انزواءه إلى حدّ أنسته أداء صلاته. إنه شيء يشبه التعويذة، ولكنه ليس كذلك. يقدّر عتيق خطورة تصرّفه الأحمق، ولكنه لم يكترث. وفي مكان ما، قريباً وبعيداً في آن واحد، استسلم للاستماع إلى أدق نبضاته وبقي أخرس للأوامر الصارمة الناهية.

سألته مسرّة: - ماذا يشغل بالك؟ إنها المرة الخامسة التي تضيف الملح لطعامك دون أن تذق منه شيئاً، ولا تتوقف عن أخذ طاس الماء إلى غاية شفتيك دون أن تشرب ولو جرعة واحدة.

حملق عتيق في زوجته بنظرة شاردة. بدا كما لو أنه لم يفهم معنى أقوالها. ارتعدت يداه، انتفض صدره،

ويكاد تنفسه، أحياناً، أن يختنق. لا يتذكّر كيف عبر الحي بساقيه الرخوتين ورأسه الفارغ، كما لا يتذكّر أنه التقى بشخص في الأزقة، حيث لا يمكنه أن يعْبُرها دون أن يناديه أو يوقفه أحد من معارفه. أبداً، لم يعرف في حياته حالة مشابهة، كهذه التي تقضّ مضجعه منذ الأمس. ومع ذلك، لم يشعر بالجوع ولا بالعطش، ولم يستثِره العالم الدائر به؛ إنه يعيش حالة عجيبة ومرعبة في آن، ولكنه لا يريد التخلص منها مقابل أطنان من الذهب الخالص: إنه في حالة جيّدة.

- ماذا أصابك، يا عتيق؟

- عفواً؟

- لله الحمد أنك تسمع. ظننت أنك أصبحت صمّاً بكماً.

- عمّا تتحدّثين؟

قالت مسرة مستسلمة: - عن لا شيء.

حطّ عتيق الطاس على الأرض، تناول قبضة ملح من إناء فخاري صغير وبدأ يذره، بحركة آلية، على قسطه من الأرز. وضعت مسرّة يدها على فمها كي تخفي ابتسامة. إن حركات زوجها تسليها وتقلقها في آن، ولكنها في المقابل لاحظت أن لمعان وجهه مريح. فهي نادراً ما رأته بهذا اللطف الأرعن. كأنه طفل عاد لتوه من فرجة لعرائس الأراجوز. تتلألأ عيناه بلمعان

داخلي، ولم تصدّق زوجته أن يشوب اضطرابه لطف ما، هو الذي لا يرتجّ إلا ساخطاً، حانقاً، حينما لا يهدّد بتخريب كل ما يقع على مدى غيظه.

دعته قائلة: - كُلْ.

تصلّب عتيق. انكمش جبينه حول حاجبيه. انتصب في وثبة وهو يضرب كفيه على فخذيه. قال وهو يركض باتجاه علّاقة المفاتيح المثبتة على مسمار في الجدار:

- يا إلهي... إنني لا أُغتفر.

حاوَلتْ مسرّة أن تنهض. خار ذراعاها النحيفان، فسقطت على فراشها ثانية. أهلكها الجهد المبذول، فاتكأت على الجدار وتفحّصت زوجها.

- ماذا فعلت مرة أخرى؟

ردّ عتيق بتضايق:

- نسيت إطْعام السجينة.

دار على أعقابه واختفى.

مكثت مسرّة متفكّرة. خرج زوجها ناسياً عمامته وصِداره وكرباجه. لم يفعل ذلك من قبل. انتظرت عودته لأخذ لوازم خروجه. ولكن عتيق لم يعد. استَنْتجت مسرّة أن زوجها السجّان لم يعد يملك جميع قواه العقلية.

تذكّرت زُنيْرة قرباناً، وهي غافية فوق الغطاء البالي.

حولها، تتمايل الزنزانة تحت أضواء القنديل الزيتي، بزواياه الملطّخة بالخدوش المتشابكة. لقد بدا كما لو أن الليل، الكثيف والدبق، بلا عمق حقيقي، يطلق صريراً دفيناً. حطّ عتيق على الأرض صينية عليها شرائح لحم مشوي و رغيف خُبْز وبعض العنبيّات، دفع ثمنها من ماله الخاص. قرفص، ومدّ يداً على السجينة بقصد إيقاظها. تجمّدت أصابعه فوق كتفها الدائري. "عليها أن تسترجع قواها" هكذا قال مع نفسه. لم تتمكن أفكاره من تحفيز حركته؛ بقيت يده معلّقة في الفراغ. تراجع إلى الوراء، واتكأ على الجدار، أحاط ساقيه بذراعيه، دفن ذقنه بين ركبتيه وتوقف عن الحركة، عيناه لاصقتان على جسد المرأة وعلى الظل الذي شكّله بياض اللمبة الساطع حيث رسم على الواجهة التي كانت له بمثابة اللوحة منظر حلم رائع. انبهر عتيق من سكينة السجينة، ولم يصدّق أن بإمكان الصفاء أن يتجلى في مكان آخر أحسن مما تجلى على هذا الوجه الشفاف والجميل كما الماء الزلال؛ وهذا الشعر الأسود، الأملس والليّن، والذي ستحلق به في الفضاء أخف نسمة ريح بأسهل مما تفعل مع طيّارة ورق؛ وهذه الأيدي الناعمة، الرقيقة التي نخالها ألطف من لمسة؛ وهذا الفمّ الصغير، الدائري... تمتم عتيق: سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. ليس من حقي أن أستغلّ نومها. يجب أن أعود إلى بيتي وأتركها تستريح. هكذا فكّر

عتيق ولكنه لم يفعل. بقي مقرفصاً في زاويته، ساقاه سجينتا ذراعيه، وعيناه أكبر من ذهنه.

قال عتيق معترفاً:

- إن جمالها لساحر، تعجز الكلمات عن وصفه.

تساءلت مسرّة مرتابة:

- أهي جميلة إلى هذا الحدّ؟

- جميلة؟ تبدو لي الكلمة عادية، بل وغير ذات معنى أصلاً. إن المرأة التي تقبع في حفرتي الواطئة أكثر مما يمكن أن تتصوّري. إنني أرتعد إلى حدّ الساعة. قضيت الليلة ساهراً على نومها، مفتوناً بإشراقها بحيث لم أنتبه إلى انبلاج الفجر.

- أتمنى ألا تكون قد شغلتك عن صلاتك.

خفض عتيق رأسه.

- إنها الحقيقة.

- أنسيت أداء صلاتك؟

- أجل.

انفجرت مسرّة بضحك تحوّلت ارتعاداته فجأة إلى نوبة سعال. قطّب عتيق حاجبيه. ولم يدرك لماذا تسخر منه زوجته ولا يلومها. فهو نادراً ما يسمعها تضحك، وقد أدخل ابتهاجُها غير المألوف شيئاً من البشاشة على ظلمة الكوخ. مسحت مسرّة عينيها، مختلجة، ولكنها مسرورة، فسوّت المخدّة خلفها واتكأت عليها.

- أسلّيك؟...

- كثيراً جداً.

- أتجدين وضعي ساخراً.

- أتجدك رائعاً، يا عتيق. كيف استطعت أن تخفي عني مثل هذه الكلمات السخية. عشرون سنة من الزواج ولا تظهر الموهبة الشعرية الكامنة بداخلك إلا الآن. لا تقدّر كم أنا سعيدة لرؤيتك قادراً على قول الأشياء بقلبك، عوض الاكتفاء بلفظها كما لو تعلّق الأمر بقيء. عتيق، الدائم العبوس، الذي يمرّ بقرب غرفة كنز دون أن يراها، يعبّر عن مشاعر نبيلة؟ إن هذا لا يسليني، بل يحييني. أرغب في الذهاب فوراً إلى هذه المرأة التي أيقظت في نفسك كل هذه الأحاسيس خلال ليلة واحدة فقط لأقبّل قدميها. إنها قديسة بلا شك. أو جنيّة.

- هذا ما قلته مع نفسي عندما رأيتها أوّل مرة.

- إذاً، لماذا حكموا عليها بالإعدام؟

ارتعد عتيق. الظاهر أنه لم يطرح السؤال على نفسه. هزّ رأسه وغمغم:

- أرفض الاعتقاد أنها قادرة على ارتكاب أفعال منكرة. هذا لا يناسبها. ربّما هناك خطأ ما.

- وماذا تقول هي؟

- لم أحدّثها.

– لماذا؟

– سلوك غير لائق. سبَق أن أقامت عندي سجينات عديدات ولعدّة أيام ولم نتبادل ولا كلمة واحدة. كما لو أن لا أحد يوجد هناك للآخر؛ نتجاهل بعضنا تجاهلاً مطلقاً، هي في زنزانتها وأنا في جُحري. حينما يحاكم شخص بالإعدام، تصبح الدموع نفسها غير مجدية. في مثل هذه الحالات، لا يوجد مكان للخشوع أفضل من السجن. لذلك، نصمت. بالأخص، أمسية تنفيذ الحكم.

مسكت مسرّة يد زوجها وشدّتها على صدرها. الغريب في الأمر أن السجّان انساق خلف سلوك زوجته. ربّما لم ينتبه له أصلاً. كان بصره بعيداً ونفَسه لاهثاً.

نفثت الألوان التي ارتسمت على قسمات وجه زوجها شيئاً من الحيوية في روحها، فقالت:

– اليوم، أشعر بنفسي في أحسن حال. إذا أردت، يمكن لي أن أعدّ لها شيئاً من الأكل.

– أتفعلين هذا من أجلها؟

– أفعل أي شيء من أجلك.

13

دفعت السجينة الصينية ومسحت فمها بأناقة بواسطة طرف منديل. ولقد دلّت هذه الكيفية في دعك زاويتي شفتيها على رتبة اجتماعية لم يعد لها وجود؛ أكيد أنها صاحبة شأن ومتعلّمة. تفحّصها عتيق مليّاً وهو يتظاهر بتحديق خطوط يده. لا يريد أن يفوته شيء من حركاتها، من تعابيرها، من كيفية تناولها الأكل، والشرب، وأخذ وحطّ الأشياء حولها. بالنسبة إليه، لا يوجد أي شك أن هذه المرأة كانت مرفهة ومتميّزة، ولبست الحرير وتزيّنت بأبهى الحلي، وتعطّرت بالروائح الفوّاحة، وأجّجت قلوب خطّاب كثّر؛ تلألأ وجهها فوق غزليات ملتهبة وهدّأت ابتسامتها عدداً لا يحصى من الذين فوجئوا بخيبة أمل صاعقة. كيف تدهور حالها إلى هذا الحدّ؟ ما هي الريح البائسة التي قذفت بها إلى داخل هذه الزنزانة، هي التي يبدو أن بصرها يروّض أضواء العالم بأسره؟

رفعت عينيها نحوه. استدار بسرعة، يحاصر صدرَه

غمٌّ مبهم. حينما عاد إليها، فاجأها وهي تتفرّس في ملامحه، وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة ملغزة. سألها إن كانت لا تزال جائعة، بقصد التغلب على الضيق الذي ينتابه. قالت لا بإيماءة من الرأس. تذكّر العنبيات على مكتبه، لم يجرؤ على الذهاب لجلبها. في حقيقة الأمر، لا يريد أن يتغيّب ولو ثانية. إنه يشعر براحة في مكانه، من الجهة الأخرى للقضبان، وفي الوقت نفسه، قريباً منها إذ يبدو له أنه يسمع نبضات قلبها.

لم تتوارَ ابتسامة المرأة. طافت على وجهها كما أولى لمحات طيف. هل تبتسم حقاً أم أنه هو الذي يهذي؟ لم تنبس ببنت شفة منذ أن سجنوها. انكمشت في منفاها، صامتة ومعتزة بنفسها، لا تظهر يأساً ولا قلقاً. كأنما تنتظر طلوع النهار لتذهب معه، بلا ضجيج. إن المهلة القاتلة الجاثمة فوق صلواتها بصبر شفرة المقصلة لا تمدّ ظلها المؤذي إلى غاية أفكارها. إنها تبدو حصيناً منيعاً في عذابها .

قال عتيق: - زوجتي هي التي حضّرت لكِ الأكل.

- أنت رجل وافر الحظ.

يا له من صوت... ابتلع عتيق ريقه. انتظَر أن تطيل في الموضوع، أن تعبّر، ولو قليلاً، عن المأساة التي تنخرها من الداخل. بلا جدوى.

بعد صمت طويل، سمع صوته يدمدم:

- هل كان يستحق الموت.

ثمّ بعزم أكثر:

- أضع يدي في النار. إن الشخص الذي لا يدرك النعمة التي هو فيها لا يستحق أدنى عطف.

أضاف وتفاحة آدم تكشط حلقَه:

- أنا متأكّد أنه كان شخصاً فظاً. ومن أسوأ الأنواع. فهو مُغتر بنفسه، مُتعجرف. لا يمكنه أن يكون إلا كذلك. حينما لا يدرك المرء النعمة التي يحظى بها، يعنى أنه لا يستحقها، بالضرورة.

تقلّص كتفا السجينة.

رفع عتيق صوته كلما شعر بكلماته تتلاحق وتتماسك.

- كان يضربك، أَلَيْس كذلك؟ من أجل نعم أو لا، كان يشمّر على ذراعيه وينقضّ عليك.

رفعت رأسها. تذكّر عيناها بجوهرتين؛ تضخّمت ابتسامتها، حزينة ومتألّقة في آن.

- أخرجك عن صوابك، أَلَيْس كذلك؟ صار لا يحتمل...

قالت بصوت هادئ:

- كان رائعاً. أنا التي لم أدرك النعمة التي كانت تحيط بي.

كان عتيق هائجاً. لا يستقر بمكان. رجع إلى البيت أبكر من المعتاد، ولم يتوقّف عن ذرع الفناء، ورفع عينيه إلى السماء ومخاطبة نفسه.

كانت مُسرّة تجلس على حصيرة وتراقبه دون أن

تتفوّه بكلمة. لقد بدأت هذه الحكاية تضجرها. لم يعد عتيق زوجها الذي تعرفه منذ أن سلّموا له السجينة. صرخ:

- ماذا دهاك؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

قدّرت مسرّة أنه من الحذر أن لا تجيبه، أقل من ذلك محاولة تهدئته. فلقد بدا كما لو أن عتيق لم يكن ينتظر إلا هذه الفرصة للانقضاض عليها فامتلأت عيناه بالصواعق وابيضّت قبضتاه في المفاصل. اقترب منها، وفي زاويتي فمه سائل مزبد:

- هل قلت شيئاً؟

أماءت برأسها أن لا.

وضع يديه على وركيه، ثمّ التفت نحو الفناء، وعلى وجهه تكشيرة غضب، ضرب بكفّه على الحائط وزأر:

- إنه حادث أحمق. يمكن أن يقع لأي شخْص. إنه شيء لا نتوقّعه بتاتاً، شيء يفاجئنا بغتة. زلج زوجها على قنينة وصدم رأسه الأرضية في ضربة قاتلة. هذا كل ما في الأمر. صحيح أنه حادث مأساوي، ولكنه حادث غير متعمد. وليست المسكينة مسؤولة عن قتله. إنه قضاء وقدر. ينبغي على القاضي أن يدرك أنه بعث بضَحية إلى الموت. ليس من حقه إرسال بريئة إلى الرجم فقط لأنها تسببت في حادث أفضى إلى الوفاة. لم تقتل هذه المرأة زوجها. لم تقتل أحداً.

وافقته مسرّة بإيماءة من الرأس. أرعدها الخوف. لم

ينتبه عتيق إليها لأنه كان تائهاً في ضغائنه. في نهاية حديثه إلى نفسه، أوضح:

- يجب أن أكلّم قاسم في الموضوع. له علاقات متينة في دواليب السلطة، وله أصدقاء لهم نفوذ. سيستمعون إليه. من غير المعقول تسليم بريئة إلى الجلاد بسبب سوء تفاهم.

قال قاسم عبد الجبار مغتاظاً من مجيء عتيق إلى غاية بيته كي يزعجه من أجل ترهات:

- ماذا تحكي؟ لقد صدر الحكم النهائي في حق هذه الكلبة المسعورة. وستُعدَم بعد ثلاثة أيام في الملعب أمام ضيوف أجِلّاء. إنها المرأة الوحيدة المبرمجة في الاحتفال. لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً من أجلها حتى وإن كانت بريئة. ولكنها مذنبة.

- إنها بريئة...

- ما أدراك؟

- اعترفت لي.

- وصدّقتها؟

- لمَ لا؟

- لأنها كذبت عليك. ليست إلا كاذبة لئيمة، يا عتيق. تستغل لطفك. لا تجعل من نفسك مدافعاً عن مجرمة لا تعرف عنها شيئاً. يكفيك ما عندك من هموم.

- إنها لم تقتل أحداً...

- لقد شهد جيرانها ضدّها. وكانت شهاداتهم

قاطعة. إن هذه الفاجرة صيّرت حياة زوجها جحيماً. لم تكن تكف عن طرده خارج البيت. لم يكن القضاة بحاجة إلى أدلة إضافية لإصدار الحكم... (مسكه من الكتفين وحدّق ملياً في عينيه). عتيق، يا صديقي عتيق، إذا لم تفق لنفسك سريعاً، سينتهي بك الأمر إلى عدم التعرف على طريق منزلك. انسَ هذه الساحرة. بعد ثلاثة أيام، ستلتحق باللائي سبقنها، وستعوّضها أخرى. أجهل كيف تمكّنت من سحرك، ولكن لو كنت مكانك، لأجهدت نفسي كي أتجنّب الوقوع في الخطأ. إن الذي يحتاج إلى العناية فعلاً هو أنت، وليست هي. لقد حذّرتك بالأمس القريب. إنك تنغلق كثيراً في مراراتك، يا عتيق، وقد نبّهتك إليها، حذار، سوف لن تتمكن من التخلّص منها بعد فوات الأوان. يبدو أنك لم تسمعني. وها هي النتيجة، أصبحت هشاً، وكانت تأوهات كلبة قذرة كافية لصرعك. أتركها تُحرق في قاع جهنم، ولا شأن لك بها. صدّقني يا عتيق، إنها في المكان المناسب لها. في نهاية المطاف، فليست إلا امرأة.

صُعق عتيق. كما لو أن زوبعة عصفت به، لا يعرف فيما يفكّر ولا ماذا يفعل بيديه، فتفاجأ بنفسه يسخط ضد الكون بأسره. لا يفهم شيئاً لشيء. إنه شخص آخر، شخص يطغى عليه، يغرقه، يعذّبه، ويحسّ بنفسه مقعداً بدونه. ما القول عن الهزّات التي تُرْعِده في ساعات القيظ، والنُضح الذي ينعشه في الدقيقة

الموالية؟ ما القول عن الجرأة التي تستحوذ عليه في كل مرّة يرفض واقعه المفروض عليه، هو الذي لا يحرك إصبعاً قدّام مأساة بإمكانه إبعادها بنقرة بسيطة؟ ما القول عن هذا الارتداد المتهوّر الذي يخرجه عن طوره حينما يصادف بصره بصر السجينة؟ أبداً، لم يصدّق أن بإمكانه تقاسم شقاء شخص ثالث. تمحْوَرت حياته كلها حول هذا الطموح: المرور قرب معذّب دون أن يثير في نفسه أي شفقة، العودة من مقبرة دون أن يتراجع عن قراراته. فجأة، ها هو يحمل على عاتقه مصير سجينة لا أحد يعرف كيف يخلّصها من حبل المشنقة. لم يفهم عتيق لماذا، وبصورة مباغتة، أصبح قلبه يخفق في مكان قلب آخر، ولماذا، بين عشية وضحاها، تقبّل أن لا شيء سيبقى على حاله كما في السابق. لقد توقّع أن يجد عند قاسم عبد الجبار شبهة من العطف من شأنها أن تساعده على التماس القضاة ليعيدوا النظر في حكمهم. ولكن قاسم خيّب أمله. سوف لن يغفر له. لقد كرهه عتيق جملة وتفصيلاً. انتهت العلاقة بينهما. لا يمكن أن تقنعه خطبة على التصالح معه، ولا حتى زعيم روحي. ليس قاسم إلا شخصاً جِلفاً، لا يملك قلباً أكثر من هراوة، ولا شفقة أكثر من حيّة. إنه أشبه بشقائه وسيُرمى في قاع جهنم. سيُرمون جميعهم في قاع جهنم، دون استثناء؛ القضاة القابعون بداخل بشاعتهم المبجّلة؛ الأشخاص الغرباء الذين يستعدون لاحتلال الملعب يوم الجمعة، بزعيقهم

وتلهفهم الوقح؛ الضيوف الأجلاء الذين سيتلذّذون بتنفيذ الإعدامات العمومية، وهم يحيّون تطبيق أحكام الشريعة باليد نفسها التي تهشّ الذباب، ويأمرون بإبعاد الجثث بالحركة نفسها التي تبارك حماس الجلادين الساخر. جميعهم، بمن فيهم كابول الملعونة التي تعلّم يومياً القتل وكفن الحياة، ذلك أن الأفراح فوق هذه الأقاليم أضحت أكثر بشاعة من الرجم.

عندما عاد عتيق إلى بيته، قال ساخطاً:

– لا أتركهم يقتلونها.

قالت مسرّة موبّخة:

– لماذا ترهق نفسك؟ ليست الأولى ولن تكون الأخيرة. إن ما تفعله جنون. فِق إلى نفسك- . لا أريد أن أفِق إلى نفسي.

– أنت تعذّب نفسك دون فائدة. أنظر إلى ملامح وجهك. كما لو أنك على شفى حفرة من الجنون.

هدّدها عتيق بأصبعه:

– أمنعك من وصفي بالجنون.

ردّت مسرّة باحتجاج:

– إذاً، فِق إلى روحك وحيناً. إنك تتصرف كشخص غرق في قطرة ماء. الأسوأ أنك تزداد شراسة حينما يحاول أحد إرجاعك إلى جادة الصواب.

أمسكها عتيق من الرقبة وسحقها ضد الجدار:

– كُفّي عن الثرثرة أيتها العجوز الشمطاء. لم أعد

أطيق رنّة صوتك، ولا رائحة جسدك...

أرخى قبضته عليها.

انهارت مسرّة على الأرض، يداها تتحسسان رقبتها الموجعة، وعيناها جاحظتان من الدهشة. لقد فاجأتها فظاظة زوجها وأجهزت عليها أقواله الجارحة.

اهتزّ عتيق في حركة حانقة، التقط عمامته وكرباجه وخرج إلى الشارع.

المسجد غاص بالناس؛ يتشاجر المتسولون ومعطوبو الحرب بحدّة حول زوايا الجامع. بصق عتيق من فوق كتفه من فرط اشمئزازه من المشهد، وقرّر أداء صلاته في مكان آخر. بعد قليل، التقى بمرزا شاه يسرع الخطى ليلتحق بالمصلين قبل ارتفاع صوت المؤذن. مرّ بقربه دون أن يعير له أدنى اهتمام. توقّف مرزا شاه، التفت وراءه ليتبع بنظره صديقه القديم، وحكّ تحت عمامته طويلاً قبل أن يستأنف سيره. لقد مشى عتيق أمامه مستقيماً، مغضّن العينين، عدواني الخطو. عَبَر قارعات الأزقة دون أن ينظر يميناً ولا شمالاً، غير آبه بأبواق السيارات وصراخ أصحاب العربات. وعندما ناداه شخص من مطعم؛ لم يسمعه. لا يسمع عتيق إلا الرعد المدوي فوق رأسه. لا يسمع إلا الدم الخافق في صدغيه، ولا يرى إلا تعرجات ضغائنه وهي تفرز سمومها على ذهنه: قاسم الذي لا يكترث باضطرابه، مسرّة التي لا تدرك أشجانه، السماء التي تحجب وجهها، الخراب الذي يدير له ظهره، المتسكعون الذين

يستعدون لاحتلال الملعب، حراس الطالبان الذين يتبخترون على الأرصفة، والملالي الذين يخطبون على الحشد، الأصبع أكثر قتلاً من السيف البتار...

عندما صفق باب السجن خلفه، تلاشى اللغط الذي كان يطارده. بغتة، وجد الهاوية أمام قدميه، وخيّم الصمت، أكثر عمقاً من السقوط. ماذا يحدث له؟ لماذا لا يفتح الباب ثانية كي تلتحق به الأصوات والشفق والروائح والغبار؟ ذرع الرواق طولا وعرضاً، لاهثاً، مقوّس الظهر. لقد سقط منه الكرباج؛ لم يلتقطه. مشى، مشى، اللحية مدفونة في الرقبة، اليدان خلف الظهر. فجأة، توجّه إلى باب الزنزانة وفتحه بغيظ.

احتمت زُنَيرة خلف ذراعيها، وقد أرعبتها فظاظة السجّان.

صرخ قائلاً:

- أخرجي من هنا... سيسقط الليل قريباً. استغلي الظلمة لحماية سباقك نحو أبعد نقطة خارج مدينة المعتوهين هذه. أركضي بكل قواك، وبالأخص لا تلتفتي ورائك مهما حدث، وإلا أصابك ما أصاب زوجة لوط.

لم تدرك زُنيرة أين يريد السجّان الزجّ بها. تقوقعت تحت غطائها، مُعتقدة أن ساعتها قد حانت. قال عتيق متوسلاً:

- أخرجي من هنا، أرجوك... اذهبي، لا تبقي هنا.

أقول لهم أن الخطأ خطئي، وأنني تهاونت في غلق الأقفال. إنني مثلهم من قبائل الباشطون. سيسخطون عليّ قليلاً، ولكنهم لن يصيبوني بسوء.

- ماذا يحدث؟

- لا تنظري إليّ هكذا. التقطي شادورك واخرجي...

- أين سأذهب؟

- إلى أيّ مكان، ولكن لا تبقي هنا.

هزّت رأسها. اندسّت يداها بعيداً تحت الغطاء، بحثاً عن شيء لم تكشفا عنه. قالت:

- لا. لقد خرّبت عائلة، ولا أريد تدمير عائلات أخرى.

- إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لي، هو طردي من العمل. وهذا آخر اهتمام لي. أخرجي الآن.

- ليس لديّ أين أذهب. توفى جميع أفراد عائلتي، أو هجروا. تبخّر بسببي آخر خيط بقي لي. كان ضوءاً خافتاً، نفثت فيه بقوة كي أجعل منه شعلة فأطفأته. لا شيء يشدّني الآن. أتلهّف على الذهاب، ولكن ليس مثلما تقترحه عليّ.

- لن أتْرُكهم يقتلونك.

- لقد قُتِلنا جميعاً. يبدو أننا نسيناه منذ زمن طويل.

14

مرّت الأيام، كالجَسْئيات المتراخية حيث يتأرجح عتيق بين الشعور بالنقص والإحساس بالخلود. أما الساعات فإنها تنمحي أسرع من الشرارات؛ وتريد الليالي أن تكون أطول من العذابات. كان عتيق معلّقاً بين المكيالين، ولا يرغب إلا في تمزيق أكثر، شقي إلى حدّ فقدان عقله. لم يتمكن أي مكان من احتوائه. يراه الناس تائهاً بين الأزقة، شارد العينين، وجبينه محفور بأخاديد قاصمة. بداخل السجن، لم يعد يجرؤ على اختراق الرواق، فيغلق على نفسه في غرفته الضيقة، ويتخندق خلف ترتيل القرآن. وبعد قراءة بعض السور، يخرج إلى الهواء الطلق، مختنقاً ومنزوفاً، يشقّ الحشود كما شبح العتمات. لا تعرف مسرّة ماذا تفعل كي تساعده. بمجرد رجوعه إلى البيت، ينزوي بغرفته ويباشر ترتيل الآيات أمام مِقرئ صغير. وحينما تذهب لرؤيته، تجده مدفوناً في همومه، على قاب قوسين أو

أدنى من الإغماء. تجلس قبالته، ترفع يديها باتجاه السماء وتغرق في الدعاء. وعندما ينتبه إلى حضورها، يغلق الكتاب بحزم ويلتحق بالزقاق ولا يرجع إلا متأخراً، شاحب الوجه، يكاد يفقد تنفسه. فَقَدَ شهية الأكل، ولا يغمض له جفن أثناء الليل، منقسماً بين السجن حيث لا يمكث إلا وقتاً قصيراً، وبين منزله الذي لا يكاد يدخله حتى يغادره. وهكذا انشغلت مسرّة بحالة زوجها إلى حدّ نسيان المرض الذي يقطّعها. وحينما يتأخّر عتيق عن الرجوع، تستحوذ عليها أفكار مرعبة. يوحي لها شيء ما أن السجّان لا يملك كامل وعيه، وقد تقع مصيبة بسرعة.

ذات مساء، التحقت به داخل الغرفة، كادت تنزع له المقرئ الصغير كي لا ينتصب بينهما حاجز، ثمّ، بصرامة، شدّت معصميه وهزّته.

- فِق إلى نفسك، يا عتيق.

قال عتيق شارداً:

- فتحت لها الباب على مصراعيه وطلبت منها أن تخرج. رفضت أن تغادر الزنزانة.

- لأنها تعرف، خلافاً لك، أن لا أحد يفلت من مصيره. قبلت بما كتبه الله لها واستسلمت لوضعها. أنت الذي ترفض أن ترى الأشياء على حقيقتها.

- لم تقتل أحداً، يا مسرّة. لا أريد لها أن تدفع ثمن جريمة لم ترتكبها.

- ولكنك رأيت قبلها موت الكثير منهن.

- إنه الدليل على أننا لا نتعوّد على كل شيء. إنني ساخط على نفسي، وساخط على الكون بأسره. كيف يمكن للمرء أن يقبل الموت فقط لأن القضاة قرّروا ذلك؟ إنه العبث بعينه. إذا لم تبق لها القوة للمقاومة، أمنع نفسي من الاستسلام. إنها شابة، جميلة... تنبض بالحياة. لماذا لم تغادر الزنزانة حينما فتحت لها الباب على مصراعيه؟

بلطف، رفعت له مسرّة ذقنه، وتركت يدها تحشّ في لحيته الشعثاء.

- وأنت، صراحة - أنظر إليّ من فضلك وقل لي- بذمّتك وضميرك، هل كنت ستتركها تغادر السجن؟

ارتجف عتيق. توقّدت عيناه بعذاب شديد.

- لقد سبق أن قلت لك إنني فتحت لها الباب على مصراعيه.

- أجل، سمعت، ولكنك، أنت، هل كنت ستتْرُكها تذهب؟

- بكل تأكيد...

- وكنتَ سَتَنظُر إليها تبتعد في الليل، دون أن تركض وراءها؟ هل كنت ستقبل أن تختفي نهائياً ولن تراها بعد ذلك أبداً؟

انهار عتيق؛ ثقلت لحيته في كف زوجته المترنّح. واصلت مسرّة مداعبة خده.

قالت له: - لا أظن.

قال متأوّهاً: - إذاً اشرحي لي بربك. قولي لي ماذا يحدث لي؟

- أفضل ما يمكن أن يحدث لبَشرٍ.

رفع عتيق رأسه، بحدّة أرْعدت كتفيه:

- ماذا يحدث لي تدقيقاً، يا مسرّة، أريد أن أفْهَم؟

أخذت وجهه بيديها. أجهز عليها ما قرأته في عينيه. انتابتها قشعريرة من الجانبين. حاولت المقاومة، بلا جدوى؛ تلألأت دمعتان غليظتان في عينيها، ثمّ تدحرجتا فوق خديها وسالتا لغاية الذقن قبل أن تجد الوقت لكبحهما.

- أظن أنك عثرت أخيراً على ضالّتك، يا زوجي العَزيز. يطلع النهار بداخلك. إن ما يحدث لك، يحسدك عليه السلاطين والأولياء الصالحون. يعود قلبك إلى الحياة من جديد. لا أستطيع أن أشْرَح لك. هكذا أفضل. ينبغي لهذا النوع من الظواهر أن يعاش بلا شرح. لأننا لا نخشى منه شيئاً.

- ماذا ينبغي أن أفعل؟

- عُد إليها. وقَبْل أن تفتح لها الباب، افتح لها قلبك واتركه يحدثها. ستسمعك. وستتبعك. خُذ يدها واذهبا معاً إلى أقصى بعد ممكن، ولا تلتفتا إلى الوراء.

- أنتِ التي تطلبين مني الذهاب إليها، يا مسرّة؟

- سأرتمي إلى قدميك كي أقنعك بعدم الذهاب. ولكن لا أحد يملك حق إفساد أروع ما يحدث لكائن بشري، وأن تطلب منه أن يتعذّب طوال ما تبقى من حياته. إنها لحظات نادرة بحيث تصبح مقدّسة.

- لن أتخلَّ عنك.

- لا أشكّ في ذلك. ولكن المسألة ليست هنا. إن هذه المرأة بحاجة إليك. تتوقّف حياتها على اختيارك. مُذ رأيتها، امتلأت عيناك لمعاناً يضيء كيانك. شخص آخر في مكانك سيغني فوق السطوح بما يحدث له. وإذا لم تغنِّ يا عتيق، فلأنك لم تتعلّم الغناء. أنت سعيد ولكنك تجهل ذلك. تطفح السعادة منك، ولكنك لا تعرف كيف تتمتع بها. طوال حياتك، لم تسمع جوارحك إلا للغير؛ إلى أسيادك وزعمائك الروحيين، إلى قوادك وعفاريتك الذين يحدثونك عن الحرب، والمرارة والإهانات. تقطر أذناك وترتجف يداك من هول ما سمعت. لهذا تخشى سماع قلبك اليوم، وتمسك حظك الذي يبتسم لك أخيراً. تحت سماوات أخرى، كان هلعك سيُثير عطف المدينة بأسرها. ولكن كابول لا تفهم الشيء الكثير في مثل هذا الهلع. ولأنها تخلت عنه، فلم تعد تنجح في شيء، لا في الأفراح ولا في الأتراح... يا زوجي عتيق، يا بعلي، أنت محمود. اسمع قلبك. إنه الوحيد الذي يحدّثك عن نفسك، الوحيد الذي يمتلك الحقيقة الحقّة. إن حكمته

أقوى من جميع الحكم. ثق فيه، أتركه يقود خطاك. وبالأخص، لا تخف. هذا المساء، ومن بين جميع الرجال، أنت الرجل الوحيد الذي يحبّ...

بدأ عتيق يرتجف.

أخذت مسرّة وجهه وترجّته قائلة:

- عد إليها. لا يزال الوقتُ أمامَكما. مع قليل من الحظ، ستصلان إلى الجهة الأخرى من الجبل قبل طلوع الشمس.

- أفكّر في المسألة منذ يومين وليلتين. لست متأكداً من أنها مبادرة جيّدة. سيلحقوننا ويرجموننا. ليس من حقي أن أقترح لها آمالاً مزيفة. إنها شقية وهشّة. أطوف في الأزقة مجتراً خطة الهروب. ولكنني حين أراها، هادئة في زاويتها، تتفتّت جميع قناعاتي. بعد ذلك، أخرج إلى الحيّ أجوبه طولاً وعرضاً، ثمّ أعود إلى البيت، تطاردني مشاريعي، حيث أستعيد قواي ولكنني أفقد قناعاتي. إنني تائه كلية، يا مسرّة، لا أريد أن يسرقوها مني، أتفهمين قولي؟ لقَد أعطيت لهم أجمل سنوات عمري، وأحلامي الأكثر حناناً، ولحمي وروحي...

وكَم كان ذهول مسرّة عظيماً، حينما اختفى عتيق خلف ركبتيه، واهتزّت كتفاه من فرط الشهيق.

ينبغي على عتيق أن يستعد. غداً، سيأتي قاسم عبد الجبار لأخذ السجينة إلى أرض لا تطأها أقدام الآلهة ولا تحلق فوقها أجنحة الملائكة. غيّر ملابسه داخل غرفته، شدّ عمامته بحزم. فكانت حركاته المضبوطة تتباين مع جمود بصره. في زاوية الغرفة، تراقبه مسرّة، بنصف وجهها داخل الظلام. لم تقل شيئاً حينما مرّ بقربها، ولم تتحرّك حينما استمعت إليه يجذب القفل ويخرج إلى الشارع.

الليلة مقمرة. الرؤية واضحة وإلى المدى البعيد. تتراكم عناقيد الساهرين على عتبات الأكواخ؛ تهيّج جلبتهم صرير الليل. خلف الجدار، زعق رضيع؛ ارتفع صوته الصغير ببطء نحو السماء حيث تتنادى ملايين النجوم.

اندفن السجن بداخل وساوسه. استرق عتيق السمع، ولم يدرك إلا طقطقة الروافد التي سحقها الحرّ. أشعل القنديل الزيتي؛ انعكس شبح ظله المعوج على السقف. جلس على السرير الميداني، مقابل رواق الموت، وشدّ رأسه بكلتا يديه. في لمح البصر، اجتاحته رغبة عارمة بأن يذهب ليرى السجينة؛ قاوم الرغبة وبقي جالساً. لقد ارتفعت سرعة نبضات قلبه. وتفرّع العرق على وجهه، ترشّح على ظهره؛ فلم يتحرك. عبر صوت مسرّة ذهنه: إنّك تعيش اللحظات الوحيدة التي تستحق فعلاً أن تُعاش... في الحب،

المتوحشون أنفسهم يرتقون إلى رتبة القدّيسين... تقوقع عتيق حول شجنه وحاول كبحه، فعادت كتفاه إلى الارتجاف بوتيرة سريعة، وأجبره تأوّه مديد على الركوع. سجد، الجبين على التراب، وطفق يرتّل كل الأدعية التي تمرّ برأسه...

- عتيق...

استيقظ، الوجه على الأرض. غفا أثناء خشوعه. كانت النافذة خلفه تعكس ارتدادات الفجر الأولى.

وقفت امرأة بالشادور أمامه.

- ماذا يحدث؟ هل وصل حراس الميليشيا؟

أزاحت المرأة نقابها المسيّج.

إنها مسرّة.

وثب عتيق على قدميه بخفة وحملق حوله.

- كيف تمكّنت من الدخول؟

- وجدت الباب مفتوحاً.

- يا إلهي... أين رأسي؟ (ثمّ، مسترجعاً صفاء ذهنه:) ماذا تفعلين هنا؟ ماذا تريدين؟

قالت له:

- حدثت معجزة هذه الليلة. التحم دعائي ودعاؤك، وها قد استجاب الله لنا. أعتقد أن دعاءك سيتحقّق.

- عن أي معجزة تتحدثين؟

- رأيت الدموع تسيل من عينيك. فكّرت: إذا ما أراه حقيقياً، يعني أن لا شيء قد ضاع تماماً. أنت،

تبكي؟ حتى حينما أخرجت شظايا قذيفة المدفع من لحمك، لم أنجح في إقلاع صرخة واحدة منك. لمدّة طويلة، اقتنعت لفكرة أن قلبك قد تحجّر، وأن لا شيء يمكن أن يُرجِف روحك أو يجعلك تحلم. وشاهدتك، يوماً بعد يوم، تتحوّل إلى ظل نفسك، فاقد الحسّ للنوائب التي حلّت بك كما الصخرة إزاء الانجراف الذي يفتّتها. الحرب فظاعة فائقة، ومنها، يستمد أطفالها القساوة التي تلف قلوبهم. ولأن الأمور مطبوعة على هذه الشاكلة، قبلت أن أقتسم حياتي مع شخص لا يطمح إلا بمغازلة الموت. بهذه الكيفية، على الأقل، وجدت ذريعة لأقتنع أنني لست مسؤولة عن خيبات أملي. وبعد ذلك، في هذه الليلة بالذات، رأيت بأمّ عينيّ الرجل الذي اقتنعت باستحالة استرداده يشدّ رأسه بين يديه ويجهش بكاءً. قلت، إنه الدليل أن شعلة إنسانية لا تزال تتقد بداخله. فجئت أنفث فيها إلى أن تصبح أوسع من النهار.

- ماذا تقولين؟

- بأنني المسؤولة فعلاً عن خيبات أملي. كنتَ شقياً لأنني لم أعرف كيف أمنح معنى لحياتك. فإذا لم تتمكن عيناك من جعل ابتساماتك صادقة، فذلك بسببي. لم أمنح لك ذرية ولا ما من شأنه أن يواسيك. وحينما كنت تضمني، كانت ذراعاك تبحث عن شخص لم تعثرا عليه أبداً. حينما كنت تنظر إليّ، تلتحق بك

ذكرياتك الحزينة. كنت أرى جيدا أنني لم أكن إلا ظلاً يحلّ محلّ ظلك، وكنت أشعر بالخجل كلما أدرت عني بصرك. لم أكن المرأة التي أحببتها، بل كنت الممرّضة التي عالجتك وأنقذت حياتك من الموت، فتزوّجتها عرفاناً بالجميل.

- لقد مسّ الضرّ عقلك، يا مسرّة. الآن، عودي إلى البيت.

- حاوَلتُ أن أكون جميلة ومغرية من أجلك. وكنت أتعَذّب لعدم القدرة على الوصول إلى النتيجة المرجوة. إنني من لحم ودم، يا عتيق؛ أتلقى كل واحد من تنهداتك كضربة سوط. كم مرة وجدت نفسي بغتة أشمّ ملابسك كما تفعل النعجة مع آثار خروفها الذي ابتعد عن القطيع وتأخر عن العودة. كم مرة أذنبت لأنني تنكّرت للمشيئة الإلهية فيما أصابنا؛ فكنت أتساءل لماذا يحدث لك، ولماذا يحدث لي، ولم أتساءل أبداً لماذا يحدث لنا، نحن الاثنين.

- ماذا تريدين بالضبط؟

- أن تتحقّق معجزة. حينما رأيت الدموع تطفح من عينيك، خيّل لي أنني أرى السماء تنفتح على ما هو أجمل في هذه الحياة. فقلت مع نفسي حرام على المرأة القادرة على إحداث مثل هذا الاضطراب أن تموت. بعد ذهابك، تحسّست المكان الذي كنت جالساً فيه بحثاً عن دمعة منسية. كنت أريد الاستحمام

بداخلها، الاغتسال من أشجان هذه الدنيا. وقد ذهبت إلى أبعد حدّ في الاغتسال، يا عتيق.

– لا أفهم قصدك.

– لماذا تريد أن تفهم ما يمثل حيرة بذاته؟ إن ما يحدث عندنا يقع على حساب ما ينصرف. لا يوجد ضرر في التسامح مع ما لا يمكن منعه؛ إن الشقاء والنجاة لا يتوقفان علينا. إن ما أريد قوله بسيط وشاق، ولكن من الضروري قبوله: ما الحياة وما الموت؟ شيئاًن يتساويان ويلتغيان.

تراجع عتيق إلى الوراء حينما تقدّمت مسرّة نحوه. حاولت أن تمسك بيديه؛ أخفاهما خلف ظهره. أضاء نور الفجر وجه المرأة. بدت سكينة شفافة على قسماته. أبداً، لم يكن وجهها جميلاً كما هو عليه الآن.

– في بلد الأخطاء التي لا ندم وراءها، ليس العفو أو تنفيذ حكم إعدام نتيجة مداولة القضاة وإنما تعبير عن تغير مفاجئ للمزاج. قل لها إنك دافعت عن قضيتها عند شخصية نافذة من الملالي دون تقديم تفاصيل. ليس لها أن تعرف ما وقع بالتدقيق. قريباً، عندما يأتون للبحث عنها، أغلق عليها بداخل مكتبك وأتسلّل أنا إلى زنزانتها. كل ما في الأمر أن شادوراً سيحتل مكان شادور آخر. لا أحد سيكلّف نفسه عناء التأكد من هوية الشخص الذي يقبع تحته. سيمرّ الوضع بلا عقبة، سترى.

- أنت مجنونة.

- على كل حال، أيامي معدودة. بعد أيام قليلة، ربّما أسابيع، سيصرعني الضرّ الذي ينخر عظامي، ولا أريد إطالة عذابي بلا فائدة.

ذُعِر عتيق. دفع زوجته، ثمّ، مدّ ذراعيه نحو الأمام وترجاها أن تبقى حيث هي.

- إن ما تقترحينه هو جنون.

- أعرف جيداً أنني على حق. إن الله هو الذي يلهمني: لا ينبغي لهذه المرأة أن تموت. ستكون بمثابة كل ما لم أستطع أن أمنحه لك. لا تتصوّر كم أنا سعيدة هذا الصباح. سيكون موتي أكثر فائدة من حياتي. أتوسّل إليك، لا تترك ما يهديه لك الحظ أخيراً يفلت من بين يديك. اسمعني هذه المرّة، أرجوك.

15

هدرت سيارة قاسم عبد الجبار، الرباعية الدفع، وهي تفرمل أمام السجن، متبوعة عن قرب بحافلة صغيرة، غاصة بالنساء والأطفال، الذين فضلوا الاصطفاف بالجهة المقابلة للشارع، كما لو أنهم يحمون أنفسهم من اللعنة الدائرة حول البناية المشؤومة. تسلّل عتيق شوكت بداخل الرواق واتكأ على الجدار، ساحقاً يديه المرتجفتين تحت فخذيه، لاصقاً عينيه على الأرض كي لا تخونه حدّة انفعالاته. شعر بالخوف والبرد يسريان في جسده وتشابكت أحشاؤه في صرير متواصل، كما لو أنها ستنفجر حيناً، فيما دأبت تشنجات عضلية حادة، موجعة، تنهش ساقيه. لقد كانت نبضات دمه تطن في صدغيه، خفية، مذكّرة بضربات مِدق غليظ عبر دهاليز تحت أرضية. قبّض فكيه وأمسك تنفسه المُتسارع بفوضى لا حدّ لها كي لا يستسلم للهلع .

تنحنح قاسم في الزقاق. إنها طريقته في الإعلان عن نفسه. فهذا الصباح، بدت قرقرة بطنه كما لو أنها تحمل شيئاً فظيعاً. ارتفع صوت صليل الحديد، وبعد ذلك ترجّل أفراد. تحرّكت أشباح فوق الأرض التي ينعكس عليها نور قاصم. ولجت ميليشيتان داخل البناية الغارقة في ظلام مفسد، بارد ورطب، رغم قيظ النهار الصاعد. مرّتا أمام السجّان، بلا أدنى كلمة، واتجهتا نحو الزنزانة في عمق الرواق، بخطى عسكرية. ظهر قاسم بدوره. ارتسمت قامته المديدة وسط الباب، مضاعفة من كثافة الظلام، فوضع يديه على وركيه، هزّ رأسه يميناً وشمالاً، التوى بإفراط ظاهر، ثمّ اقترب من السجّان متظاهراً بالاهتمام بشقّ في السقف.

- ارْفَع رأسك أيها المقاتل. سَتَتكسّر رقبتك ولا يمكنك بعد ذلك أن ترى نفسك في المرآة كما ينبغي.

هزّ عتيق موافقاً دون أن ينصاع لأمر قاسم.

عادت الميليشيتان، السجينة أمامهما. ابتعد الرجلان ليفسحا لهن الممر. راقب قاسم صديقه بطرف عين، ثمّ سعل في قبضته.

قال: - انتهت عملية التسليم.

أدخل عتيق بغتة رقبته بين كتفيه، وقد انتابته قشعريرة راجفة.

قال قاسم ملحاً:

- يجب أن تأتي معي. لديّ أشياء أريد ضبطها معك.

- لا أستطيع.

- وما يمنعك من ذلك؟

فضّل السجّان التزام الصمت، أما قاسم، فألقى نظرة حوله وبدا له شبح قابع في زاوية من الغرفة الصغيرة.

- هل يوجد شخص في مكتبك؟

شعر عتيق بصدره ينقبض، خانقاً تنفسه ضربة واحدة:

- زوجتي.

- أراهن أنها تريد الذهاب إلى الملعب.

- هذا ما تريده... هذا هو بالضبط...

- زوجاتي وأخواتي أيضاً. أجبروني على مصادرة هذه الحافلة التي تنتظر خارج السجن. حسناً، وما المانع؟ قل لها أن تلتحق بهن. ستسترجعها عند الخروج من السجن. أما أنت، فيجب أن تأتي معي. من الضروري أن أحدّثك عن مشروع عزيز على قلبي.

ارتبك عتيق. حاول أن يفكّر بسرعة، ولكن صوت قاسم الخشن منعه من التركيز:

- ماذا يحدث ؟ هل قاطعتني؟

- لا أقاطعك.

- إذاً، لماذا هذا العبوس؟

أخَذتْه مواجهة قاسم على غرّة، فجَرّ قدميه نحو مكتبه، مغمض العينين في محاولة منه إدخال شيء من الترتيب بداخل أفكاره. تسارعت الأشياء حواليه، تجاوزته، زعزعته. توقّع مخرجاً مغايراً، ولا شيء منه سيحدث. أبداً، لم يظهر له بصر قاسم أكثر يقظة وتنقيباً. غمره العرق من جميع النواحي. وأحسّ بدوخة خفيفة تضعف نفَسه، وتقصم ساقيه. وقف عند عتبة باب المكتب، فكّر ملياً بعض الثواني ثمّ أغلق الباب وراءه. تفرّسته المرأة الجالسة على السرير الميداني. لا يميّز بصرها، ولكن صلابتها زادت في تأجيج ضجره. قال متلعثماً:

– أترين؟ لقد استجاب الله لنا: أطلقوا سراحك. أكّد لي الخبر الرجل الذي ينتظر في الخارج. لم يُقرّوا أي تهمة ضدك. يمكنك الرجوع على بيتك ابتداء من اليوم.

– من هنّ النساء اللائي رأيتهن في الرواق قبل قليل؟

– هذا سجن النساء... وباستمرار، يؤتى بالبعض ويطلق سراح البعض الآخر.

– هل جاءوا بسجينة جديدة؟

– هذه ليست مشكلتك. أغلقنا نافذة الأمس، لنفتح نافذة الغد. أنت حرّة. هذا هو المهم.

– هل بمقدوري الذهاب الآن؟

- بالطبع. ولكن قبل ذلك، يجب أن آخذك مع نساء أخريات في حافلة صغيرة تنتظر في الزقاق. لسْتِ مجبرة بأن تقولي لهن من أنتِ، ولا من أين أتيتِ. لا ينبغي أن يعرفن... ستحطّكن الحافلة عند الملعب حيث يقام احتفال رسمي.

- أريد الرجوع إلي بيتي.

- اشْشْت... خفضي صوتك.

- لا أريد الذهاب إلى الملعب.

- الذهاب إجباري... لن يدوم طويلاً. عند نهاية التجمّع، سأنتظرك عند الخروج وآخذك إلى مكان محمي.

في آخر الرواق، تنحنح قاسم كي يُفْهم السجّان أن وقت الذهاب قد حان.

وقفت زُنَيرة. قادها عتيق إلى غاية الحافلة ورجع ليأخذ مكانه إلى جانب قاسم في سيارة الـ4×4. لم ينظر، ولو مرّة واحدة، إلى الميليشيتين وسجينتهما اللائي يجلسن في المقعد الخلفي للمركبة.

دوت مهاترات الملالي، التي تذيعها مكبرات الصوت العديدة، عبر الأنقاض المجاورة. ومن حين لآخر، يرتجّ الملعب بالتصفيقات والصيحات الهستيرية حيث يواصل الحشد تدفقه من كل حدب وصوب. ورغم الحواجز المدعّمة للمكلفين بالنظام، فإن هيجاناً

جامحاً يحبّل ضواحي المُضطرع. أوّلاً، بدأ قاسم بتوجيه الحافلة نحو باب يقل فيه الازدحام، أنزل النساء وسلّمهن لميليشيات كي ينظمن جلوسهن في المدرجات. بعد أن اطمأن، ركب ثانية في سيارته الرباعية الدفع وتدحرج بها على أرضية الملعب حيث ينشغل حراس الطالبان المسلحون بحماس مفرط. تشهد بعض الأجساد المعلّقة هنا وهناك في طرف حبل أن تنفيذ الإعدامات قد بدأ. وعلى المدرجات الغاصة، يجلس الناس في ضيق شديد حيث يوجد أغلبُهم هنا لتفادي القلاقل مع الطالبان؛ وهكذا يشاهد هؤلاء البشاعة صامتين. أما الآخرون، أولئك الذين اختاروا الجلوس في أماكن قريبة من المنصّة الرسمية، حيث يتبختر أعيان الخراب الشامل، فإنهم يبالغون في التعبير عن تهيّجهم كي يجلبوا الأنظار إليهم؛ إن تهللهم المفرط، بل المرضي، وصيحاتهم المتنافرة، يثير التقزّز حتى لدى زعماء الطالبان الروحيين. ترجّل عتيق، ووقف جامداً بقرب السيارة، وعيناه لا تغادران المكان المخصّص للنساء، متصوّراً أنه يتعرّف على زنيرة في كل واحدة منهن. لقد تخندق في أعمق عمق هذيانه، ولا تنفذ إلى سمعه التصفيقات ولا خطب الملالي، البطن والرأس يتخبطان في تشبّك يتعذّر فك خيوطه. ولا يبدو كذلك أنه يرى آلاف المتفرجين الذين تغصّ بهم المدرجات، تلك الأرهاط من المتوحشين بأفواههم الأكثر نتانة من

لحاهم. إنه يحاول بحدقتيه المتقدتين أن يعثر على المكان الذي تقبع فيه محظيّته، مقصياً بقية العالم نحو العدم. تعالى هرج ومرج في جناح من المصطرع، فتلاه نعيق مشؤوم. دفع حراس "ملعوناً" نحو مصيره حيث ينتظره جلاد، في يده خنجر. لم يقتضِ تنفيذ الإعدام إلا حركات طفيفة. قُيِّد الرجل وأجبر على الجثوّ على ركبتيه. تلألأ نصل الخنجر قبل أن يقطع رقبته. في المدرجات، انفجرت تصفيقات متفرّقة تنوّه بمهارة الجلاد. قُذف بالجثة الدامية على منقلة؛ من المقبل؟ أو المقبلة؟ كان بصر عتيق لاصقاً على صفوف الشوادر التي تنتصب أمامه كسور قلعة أزرق، بحيث لم يرَ المليشيات تمسك بسجينتها وتدفع بها باتجاه الجلاد. لقد مشت هذه الأخيرة إلى غاية منتصف أرضية الملعب، ثمّ، رافقها رجلان إلى المكان المخصص لها. أمرها صوت بالجثو على ركبتيها. نفذت المطلوب منها، ثمّ رفعت عينيها تحت القناع المسيّج، فرأت عتيق، هناك، بقرب الـ4×4، يدير لها ظهرها. في اللحظة التي أحست بفوهة البندقية تلمس مؤخر جمجمتها، دعت السماء كي لا يلتفت السجّان نحوها. مباشرة، انطلقت الرصاصة آخذة في تجديفها دعاءً منقوصاً.

لم يعرف عتيق إن دامت الاحتفالات ساعات أم دهراً. انتهى النقالون من ركم الجثث على مقطورة

جرّار. اختتمت "الاحتفالات" بخطبة رنّانة. ومباشرة بعد ذلك، زحف آلاف المريدين باتجاه أرضية الملعب لأداء صلاة الجمعة بحيث أَمَّهم مُلا بملامح سلطان فيما كان الحراس يستعجلون المتأخرين. بعد ذهاب الضيوف الأجلاء، تشكّلت أرهاط عاجّة في ارتدادات شرسة استعدادا للتوجّه نحو الخروج. تدافع الحشد وتقاذف بفظاظة، مما أجبر الحراس المكلّفين بحفظ النظام على الانسحاب. وحينما طفقت الشوادر في مغادرة المدرجات، التحق عتيق بتجمع من الرجال وانتظر معهم. لقد كان قاسم هناك، اليدان على الوركين، مزهواً بإنجاز عمله كما ينبغي. إنه متأكّد أن مساهمته في الجريان الجيّد لتنفيذ الإعدامات العمومية لن تمرّ دون أن يثمنها زعماؤه الروحيون. بدءاً، تصوّر نفسه وقد ترقّى على رأس أكبر سجن في البلد.

لقد طفقت أولى النساء في الخروج من الملعب، ليسترجعهن رجالهن في الحين. ابتعدن، في زرافات متباينة نوعاً ما، يحاط بعضهن ذريتهن. ضعُف اللغط شيئاً فشيئاً، مع تخلّص ضواحي الملعب من زواره وذابت الحشود وسط الغبار وهي صاعدة نحو المدينة التي قصمت ظهرها مركبات الطالبان المتتابعة في تعاقب جنوني.

تعرّف قاسم على حريمه في قلب التجمهر؛ بهزّة

رأس نحوه، أشار إلى الحافلة المنتظرة عند أسفل شجرة.

- إذا أردت، يمكنني أن أحطّك في بيتك، أنت وزوجتك.

ردّ عتيق: - لا تتعب نفسك.

- لا تعب ولا هم يحزنون.

- لديّ بعض الحاجات سأقضيها بالمدينة.

- حسناً. أتمنى أن تفكّر في اقتراحاتي.

- طبعاً...

حيّاه قاسم وأسرع للالتحاق بنسائه.

واصل عتيق انتظار "امرأته". تقلّص حوله التجمهر بشكل ملحوظ. لم يبقَ إلا عنقود صغير من أشخاص مشعّثين يرافقونه بعض اللحظات قبل أن يبتعدوا بدورهم، جارين في سياقهم، صريف الشوادر. بعد هنيهة، انتبه عتيق أن المكان قد خلى من أي شخص. فباستثناء السماء الملبّدة بالغبار وسياج الملعب المفتوح على مصراعيه، وحده الصمت، بائس، عميق كما الهاوية السحيقة، يخيّم بأسماله على المكان. نظر عتيق حوله، غير مصدق، مضطرب البال كلية؛ إنه حقاً وحده. انتابه الهلع، تسارع إلى داخل الملعب. لقد كانت المدرجات والأرضية فارغة. رفض قبول الأمر الواقع، فجرى إلى غاية المكان الذي خصّص للنساء

حيث لا أحد يعكّر صمت المقاعد الشاغرة. عاد إلى الأرضية وبدأ يجري كالمسعور. تمايلت الأرض تحت اندفاعاته. وطفقت المدرجات تدور، فارغة، فارغة، فارغة. في لحظة ما، أجبره الغثيان على التوقف. وبعد لحظات طفيفة، عاد ثانية إلى الركض المجنون فيما أوشك تنفسه اللاهث على اكتساح الملعب، ثمّ المدينة، فالبلد بأسره. عاد إلى وسط الملعب، مذهولاً، مرعوباً، يكاد قلبه ينفلت من حلقه، عاد إلى المكان الذي تخثّرت فيه دماء بركة، وهنا، شدّ رأسه بيديه، وحدّق بعناد في صفوف المدرجات، الواحدة وراء الأخرى. بغتة، انتبه إلى سعة الصمت الجاثم على الملعب، فتلاشت ساقاه وسقط على ركبتيه. انقضّت صرخته المدوية على الأسوار مثل جأر بهيمة مصعوقة، أكثر فظاعة من انهيار جبّار: زُووونَيرا!!!!!.

في السماء الشاحبة، تجتهد خطوط الليل الأولى لإطفاء الشعل الغسقية القليلة المتبقية. هكذا، الواحدة وراء الأخرى، تتكوّر أضواء النهار على قمم المدرجات، فيما تبسط الظلال، الماكرة والعملاقة، وشائجها على الأرض استعداداً لاستقبال الليل. لقد انخفضت ضوضاء المدينة بعيداً وفي الملعب، الذي تستعد نسمة ريح مُتخمة بالأشباح على احتلاله، تندفن الأرضية المبلّطة بداخل صمت جنائزي. أخيراً، رضي

عتيق، الذي دعا وانتظر كما لم يفعل أبداً، برفع رأسه. أرجعه بؤس الأسوار المحزن إلى صوابه؛ ليس لديه ما يفعله وسط هذه الأسوار الشاحبة. اتكأ بيد على الأرض فوقف. ترنّحت ساقاه المتردّدتان. غامر بخطوة، فأخرى، وتمكّن بصعوبة من الالتحاق بالباب. خارج الملعب، يراكم المساء ظلامه عند أقدام الأنقاض. مرق المتسولون من جحورهم، الصوت ناعس كي يضفوا على تأوهاتهم تأثيراً أكبر. أبعد من ذلك، يعيد أطفال مسلحون بسيوف وبنادق خشبية تمثيل احتفالات الصباح؛ قيّدوا بعض أصدقائهم وسط ساحة كئيبة وهم على أتمّ الاستعداد لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، بينما يراقبهم شيوخ عاطلون وهم يبتسمون، وقد أعجبوا بإعادة تمثيل الأحداث. لقد ذهب عتيق حيث قادته خطواته. بدا كما لو أنه يتقدّم وسط ضباب. تتردّد على شفتيه الجافتين كلمة واحدة -زنيرة-، خافتة، ولكنها ملحّة. مرّ قرب السجن، ثمّ منزل نازيح. خيّم عليه الليل في عمق زقاق تتناثر على قارعته الأنقاض وتعبره أشباح خافتة طولاً وعرضاً. وحينما وصل إلى منزله، خانته ساقاه من جديد، فانهار وسط الفناء. تأمّل عتيق القمر، مستلقياً على ظهره. إن القمر في تمامه هذا المساء. إنه أشبه بتفاحة فضية معلقة في الهواء. أثناء صغره، كان يقضي أوقاتاً طويلة في تأمل القمر. لقد كان يجلس على تَلْعَة، بعيداً عن الكوخ العائلي،

ويجتهد ليفهم كيف يمكن لكوكب بهذا الثقل أن يطفو في الفضاء ويتساءل إن كانت به كائنات شبيهة بتلك التي تقطن قريته، تزرع الحقول وترعى قطعان الماشية. ذات مرة، رافقه أبوه في جلسته التأملية. هكذا روى له سرّ القمر. قال له إن الشمس هي التي يدفعها غرورها إلى نبش أسرار الليل، بعد أن تتعجرف ساطعة بنورها طوال النهار. وما رآه هناك، كان عصيّ الاحتمال إلى حدّ فقد معه كل حماس.

صدّق عتيق طويلاً بصحة هذه الحكاية.

اليوم أيضاً، لا يمكن منع نفسه من التصديق. ماذا يوجد من خطورة هناك، في الجهة المقابلة من الليل، كي تترك فيها الشمس كل بهائها وألوانها؟

استجمع عتيق آخر قواه، وجرجر جسمه إلى داخل المنزل. أسقط ذراعه المتحسّس القنديل. لم يشعله. يعرف أن أدنى ضوء سيفقأ عينيه. انزلقت أصابعه على الجدار، التحق بعتبة الباب التي كانت تحتلها زوجته. بحث عن الحصيرة، ترك نفسه ينهار عليها، وهنا، استولى على الغطاء وضمّه إلى حدّ الاختناق، وحلقه يرتجف بالشهيق:

– مسرّة، يا عزيزتي مسرّة، ماذا فعلتِ بنا؟

تمدّد على الفراش الرث، جذب ركبتيه ضد بطنه وانكمش صغيراً، صغيراً جداً...

- عتيق...

ارتجف.

تقف امرأة وسط الغرفة. يتلألأ شادورها الأغبش في الظلام. ذهل عتيق. حكّ عينيه، بشدّة. مكثت في المكان نفسه، ترفرف بداخل أضوائها الملتبسة.

قال متلعثماً وهو يحاول النهوض:

- ظننت أنك ذهبت إلى غير رجعة، وأنني سوف لن أرَك أبداً.

- كنت مخطئاً...

- أين ذهبتِ؟ بحثت عنك في كل مكان...

- لم أكن بعيدة... كنت مختبئة.

- إنني على شفى حفرة من الجنون.

- أنا هنا الآن.

تشبّث عتيق بالجدار كي يقف على رجليه. يرتجف كما الورقة. فرَّجت المرأة ذراعيها وقالت:

- تعال.

جرى واحتمى في حضنها، كما الطفل الذي أعيد إلى أمّه بعد طول غياب.

- آه، زنيرة، يا زنيرة، كيف كنت سأصبح بدونك؟

- المسألة لم تعد مطروحة.

- كم كنت خائفاً.

- بسبب الظلام المخيّم هنا.

- لم أشعل الضوء عمداً. ولا أريد أن أفعل.

وجهكِ سيضيئني أفضل من ألف قنديل. انزعي نقابك، أرجوك، واتركيني أحلم بك.

تراجعت بخطوة إلى الوراء، ورفعت النقاب المسيّج إلى أعلى الشادور. أطلق عتيق زعيق رعب، وهو يقذف بنفسه إلى الخلف. ليست زنيرة؛ إنها مسرّة، وبنصف وجهها الذي قلعته طلقة الرصاص.

استيقظ عتيق صارخاً، ماداً يديه نحو الأمام كي يبعد الفظاعة. قضى لحظات مديدة، بعينيه الجاحظتين وجسمه المنضّح عرقاً، كي يدرك أن الأمر يتعلّق بكابوس .

في الخارج، طلع النهار، جاراً معه أشجان العالم.

كان مظهر عتيق الذي جنح إلى المقبرة في حالة يرثى لها، بلا عمامة ولا كرباج، لا يشدّ سرواله المنخفض إلا حزام سيء الضبط. في حقيقة الأمر، لا يكاد يتقدّم، يجرجر قدميه، نظرته زائغة، الخطو رازح، بينما ترسم خيوط نعليه على التراب تعرجات زواحف؛ تشقّق حذاؤه الأيمن، معرضاً للشمس إبهام القدم، قبيح الشكل، بظفر مكسور، مبقعاً بلطخة دم. يكون قد زلج في مكان ما، ذلك أن جانبه الأيمن ملوّث بالوحل، ويظهر خدش على مرفقه. لقد بدا كما لو أنه سكران، ويجهل وِجْهته. ومن حين لآخر، يتوقف ليتكئ على جدار، فقار الظهر مقوّس، اليدان مسحوقتان ضد

ركبتيه، مترنحا بين رغبة في القيء والحاجة إلى استعادة تنفسه. أما وجهه الداكن، الذي تزيده سواداً لحية شعثاء، فكان مجعداً مثل سَفرْجلة ذابلة، بجبينه المفروم وجفونه المتورمة. لقد كان شقاؤه صارخاً، وخرابه متقدّماً، يتفرّسه المتسكعون القلائل الذين يمرون بقربه بعين مريبة؛ يقوم بعضهم بانحرافات عريضة بقصد تجنّبه ويراقبه الأطفال الذين يلعبون هنا وهناك عن كثب. يبدو رأسه ثقيلاً فوق كتفيه، وحركاته رعناء؛ يرى التواء الأزقة عبر ضبابية كثيفة. إنه لم يذق طعم الأكل منذ ثلاثة أيام. فلقد قضّه الصوم والشجن. وفي زاويتي فمه، جفّ رضاب أبيض؛ لا يتوقف عن التمخّط على رسغه إذ وجب عليه هزّ خصره مراراً كي ينفصل عن الجدار ويواصل سيره بينما ترتجف ربلتاه بداخل هيكله الوهن. لقد أوقفه حراس الطالبان مرتين، شاكين أنه في حالة سكر؛ ذهب السخط بأحدهم إلى إعطائه ضربة، آمراً إياه بالرجوع إلى بيته فوراً. لا يبدو أن عتيق يعي ما يحدث له، فبمجرد إطلاق سراحه، استأنف سيره عبر درب المقبرة، كما لو أن نداءً مجهولاً يجذبه نحوه .

جثت عائلة في خشوع حزين حول قبر حديث العهد، تتشكّل من نساء بأسمال بالية وذرية بوجوه ملطخة بنثار الوسخ. وبعيداً عنها، يحاول بغّال تصليح عجلة عربته حيث كانت صخرة كبيرة قد قذفتها من محورها في الوقت الذي كانت فيه بعض الكلاب

الضامرة تشمّ الدروب، بأفواهها المتربة، وآذانها الصاغية. فلقد ترنّح عتيق وسط أكوام التراب التي تورّم الميدان المُهمَل بكدمات مشققة، بلا شواهد قبرية؛ إنها مجرّد سواقٍ مغطاة بالتراب والحصى، محفورة مثلما اتفق، وسط أنقاض مخيفة تضيف على الحزن السائد في هذه الأماكن مسحة مأساوية. أطال عتيق وسط القبور الجرداء، ينحني أحياناً كي يتحسّسها بأصابعه، ثمّ، يتعداها أو يتعثر فوقها مغمغماً. وفي طرف دورة، انتبه إلى أنه عاجز عن معرفة مكان قبر مسرّة لأنه ببساطة يجهل أين دفنت. شاهد حفاراً يقضم قطعة لحم مجفف، في الجهة المقابلة للقبور، فذهب يسأله عن قبر المرأة التي قتلت في الملعب. أراه الحفار ركاماً من التراب على مرمى حجر واستأنف أكله بشهية.

انهار عتيق على قبر زوجته. شدّ رأسه بيديه، وبقي على هذه الحالة إلى ساعة متأخّرة من الظهيرة. بلا كلمة. بلا تأوّه. بلا دعاء. احتار حفّار القبور وجاء يتأكّد إن كان الزائر الغريب مستيقظاً. نبّهه إلى أن الشمس تضرب بقوّة وأنها ستضرّه إن لم يحمِ نفسه من وهجها. لم يهضم عتيق السبب الذي أدى بالحفار إلى لومه، فواصل تثبيت بصره على قبر زوجته دون حراك. بعد ذلك، وقف وغادر المقبرة دون التفاتة، رأسه يطن، وعيناه نصف معميتين. لقد هام على وجهه عبر الأزقة، تارة يسند يده على جدار، تارة أخرى على

شجيرة. وفي لحظة ما، خرجت امرأة من سقيفة، ترتدي شادوراً حائلاً، بأذيال مثقوبة، بقدميها نعلان رثان، فانتصب عتيق وسط الطريق معترضاً سبيلها، كمن يصحو فجأة من سكر. انتحت المرأة جانباً؛ أمسكها عتيق من الذراع وحاول إيقافها. وبهزّة، تحرّرت المرأة من قبضة الرجل وهربت... قال لها: زُنيرة... يا زنيرة... توقفت المرأة عند آخر الزقاق، حدّقته بفضول وتوارت عن الأنظار. أسرع عتيق ليلتحق بها، ذراعه ممدودة كما لو أنه يريد الإمساك بنفحة دخان. وفي زقاق آخر، فاجأ امرأة ثانية على عتبة ركام من الأنقاض. فعندما رأته يقترب، دخلت وأغلقت الباب وراءها. التفت عتيق ورأى شادوراً أصفر اللون ينزلق باتجاه ساحة الحي. تبعه، اليد دائماً ممدودة. زنيرة، زنيرة...ابتعد الأطفال عن طريقه، أرعبهم هذا الرجل الأشعث الشعر، بعينيه الزائغتين وشفتيه الجافتين، المتورمتين، والذي يبدو أنه يطارد عُتْهه الخاص. توقف الشادور عند عتبة منزل. انقضّ عليه عتيق، والتحق به في اللحظة التي انفتح فيه الباب... أين كنتِ؟ انتظرتكِ عند خروج الملعب، مثلما اتفقنا، ولم تأتي إليّ... حاول الشادور الأصفر أن يتخلّص من المخالب التي تمزّقه... أنتَ مجنون. انْزَع يديك وإلا صرخْت- . . . هذه المرة، سوف لن أترككِ وحيدة، يا زنيرة. إذا كنتِ عاجزة عن إيجادي، فسوف لن

أجبرك على البحث عني- . . . أنا لست زنيرة. اذهَب يا شقي، وإلا قتلك إخوتي- . . . أنزعي النقاب. أريد رؤية وجهك، وجهك الجميل الشبيه بوجه الحوريات... ضحى الشادور بقطعة من جانبه وتبخّر. لقد كان أطفال يتابعون المشهد عن كثب، فالتقطوا أحجاراً وطفقوا يمطرون المجنون إلى أن رجع القهقرى. أصابت رمية صدغه، تدحرج الدم على أذنه، فبدأ عتيق يركض، وئيداً في البداية، ثمّ، حثّ الخطى كلّما اقترب أكثر من الساحة، تنفسه لاهث، منخاراه ممدودان إلى الأمام، وفمه يرغى زبداً. زنيرة، زنيرة... تمتم وهو يندفع وسط الحشد المتسكّع بحثاً عن شبح شادور. بغتة، تأجّج هيجانه المسعور، فطفق يضطهد النساء و- يا للعار- يرفع النقاب فوق الوجه. زنيرة، أعرف أنك هنا. أخرجي من مخبئك ولا تخشي شيئاً. لا أحد سيمسك بسوء. لقد رتّبت كل شيء. لا أترك أحداً يزعجك... ارتفعت صرخات سُخط واشمئزاز. لا تصل مسامعه. تنشل يداه النُقب وتقلعانها بضغينة. سقطت بعض النساء تحت هول المفاجأة وقوة الانقضاض. وحينما تقاوم إحداهن، يقذف بها أرضاً، يجرّها على التراب ولا يرخي مخالبه إلا بعد تأكّده من أنها ليست تلك التي يطلبها. لقد أصابته ضربة هراوة أولى على الرقبة. لم توقف اندفاعه الهائج. استأنف سباقه المسعور، كما لو أن قوّة خارقة هي التي تقذف به هنا

وهناك. بعد لحظات، تجمّع رهط من الرجال المستنكرين، مصممين على كبح جموح المعتوه. تفرّقت النساء صارخات؛ تمكن من الاستحواذ على بعضهن، مزّق شادوراتهن، رفع رأسهن جاذباً إياهن من الشعر. بعد الهراوات، انهالت عليه ضربات السوط والكرباج، متبوعة بقبضات الأيدي والركلات. رفس الرجال "المهانون" نساءهم كي ينقضوا على المجنون... يا فاجر... يا معين الشيطان... انتاب عتيق إحساسٌ غامض بأن وابلاً يجرفه. أخذت تتدحرج فوق جسده آلاف النعال، آلاف العصي، آلاف السياط. يا فاجر، يا ملعون. سحقه الجُراف فانهار. تساقط عليه القطيع الهائج لرجمه. يوشك القوم على نهش لحمه وامتصاص دمه، ورغم ذلك، سعفه وعيه المشوّش لينتبه أن قميصه اختفى، وقد مزّقته الأصابع المدمرة، وأن الدماء تسيل مدراراً على صدره وعلى ذراعيه، وأن حاجبيه المفجرين يمنعانه من تقدير حجم الغضب الشرس الذي يحاصره. لقد انضمّت مقاطع من زعقات الشتائم إلى الضربات العديدة لإبقائه على الأرض... أمسكوه؛ أرجموه؛ أحرقوه حياً... فجأة، ارتجّ رأسه، وغرق ما حوله في الظلام. تبعه صمت مديد وحاد. وعندما أغمض عتيق عينيه، توسّل إلى أسلافه كي يجعلوا نومه غامضاً دفيناً كما أسرار الليل.

صدر للمؤلف

في سلسلة فسيفساء

عن دار الفارابي وسيديا

الصدمة

أشباح الجحيم

طبع في مطابع

مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

بيروت – لبنان ــ هاتف وفاكس: 00961 1 475905

أيلول/ سبتمبر 2007

سنونوات كابول

في مدينة كابول القابعة تحت القيظ، بين خراب النكبة وخراب العقول، يبحث رجلان وامرأتان عن معنى لحياتهم : حضري مخلوع، محامية منعت من ممارسة مهنتها، سجّان يتقلّص شيئا فشيئا في ظل تنفيذ الإعدامات العمومية وزوجة تصارع مرضا عضالا. وخلال رحلتهم بحثا عن الكرامة الإنسانية، يعيشون عذاب أمّة صدمتها الحروب وجنون أهلها، سُلّمت لتعاويذ زعمائها الروحيين ولطغيان استبداد الطالبان.

ومع ذلك، في وقت بدا فيه اليأس مطلقا، رفض الحب الاستسلام واستنجد بالمعجزة. ولكن ما قيمة المعجزة في بلد تكون فيه الأفراح أكثر رعبا وشراسة من القتل بالرجم ؟

في هذه الرواية الرائعة التي تعتبر بمثابة نشيد للمرأة، استطاع الكاتب ياسمينة خضرا أن يكشف بجلاء مبهر تعقيد السلوك في المجتمعات الإسلامية الممزّقة بين التراث والحداثة.

خلال سنوات قليلة، وعبر روايات رائعة، بموضوعاتها الحساسة، تمكن الكاتب ياسمينة خضرا من اكتساب شهرة عالمية، وحظيت كتبه باستقبال رائع حيث ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة.

وتعتبر «سنونوات كابول» أوّل جزء من ثلاثية تناولت موضوع الصراع بين الشرق والغرب.

ترجمة : محمد ساري

Photo : DR



ISBN 978-9953-71-250-5
9 789953 712505
لبنان


9 789961 704875
الجزائر